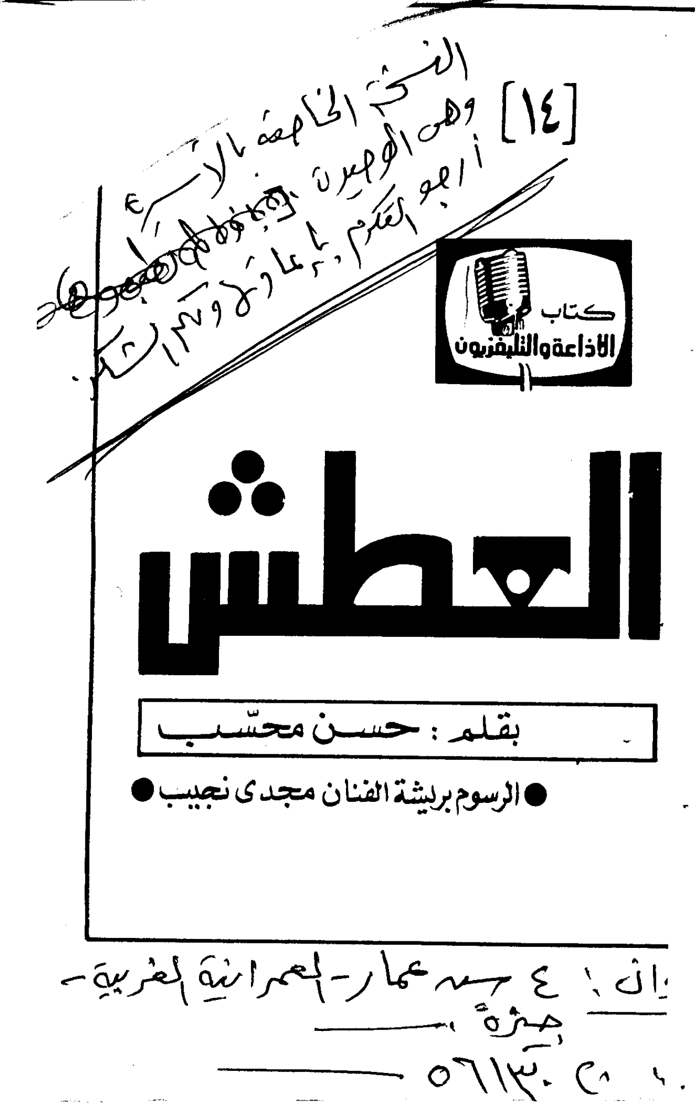
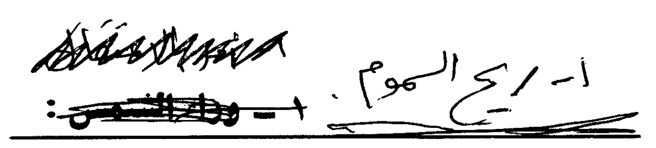

كتاب
الاذاعة والتليفزيون
العطش
بقلم : حسن محسب
الرسوم بريشة الفنان مجدى نجيب





((هبت ريح السموم .. ارتجفت النجوم .. وجاء الخريف قبل الأوان .. وسقطت البلدة فى براثن كابوس رهيب .. واجتاح ((زوار الليل)) .. البلدة من كل الجهات ! ..))



فى عام ١٩٦٧ ، هبت ريح السموم . انكمش الخفراء داخل البيوت وفوق القش وناموا . انطلقت الوطاويط من الخرائب والمقابر وامتصت بعض العيون . صرخت امرأة فى وسط البلد وفى رحمها اختنق الجنين . ارتجفت النجوم واختفت فى الظـــلام . تداخلت فصول السنة .. وجاء الخريف قبل الأوان .. ازداد هطول الأمطار ، واشتد البرد وملأ الطين الأزقة والشوارع ، وســقط البلد فى براثن كابوس رهيب .

وفى احدى الليالى..اجتاح « زوار الليل » البلد من كل الجهات .. تم كل شىء فى سرعة مذهلة : ذهبوا الى دار ((**الشيخ تهامى**)) ــ واعظ البلد ــ وقبضوا على وليد شقيق زوجته « **الست أم خالد** » وأمروا الشيخ وزوجته والطفل الصغير والجدة العجوز بالصمت .

ثم أغاروا على معســكر المهاجرين ــ فى المدرســة الابتدائية القديمة ــ وأخذوا ((**يوسف**)) من بين أمه واخوته الصغار، ورفضوا أن يودع خطيبته « **هــدى** » ، وأمروا من استيقظ من المهــاجرين وزوجاتهم وعيالهم بالصمت .

وبعد دقائق ، اقتحموا دار « **فتوح أفندى** » ــ ناظر المدرسة الابتدائية ــ واختطفوا ابنه **عصام** ، وأمروا أهله بالصمت .

.. وعندما اختفى « **الأولاد الثلاثة** » فى غبش الفجر ، انفجر عويل الامهات والشقيقات والجارات ، وانفلت فزع الأطفال وصاحوا وبكوا ، وأحس الآباء والأصدقاء بالعجز والقهر .

* *

فىالصباح.. أقسم العمدة، وأقسم شيخالبلد، واستشهدا بشيخ الخفر ، أنهم لم يعلموا بالأمر ، والا لقاموا بواجب الأهل وانكروا وجود « **الأولاد** » أوشهدوا بأنهم لم يفعلوا شيئا يغضب الله والناس .

.. وعرف أهل البلد ، بعد أن أفاقوا من الهول ، ان «الأولاد» قد اختفوا ،لكن أين ؟ . فى المدافن ، فى المركز ، فى الجبل ، فى طره ، وراء الشمس، الله وحده يعلم .. فلا احد يقدر على فتح فمه ليناقش أويخمن ، وأحس الناس بالحاجة الى كلمة تبل عطشهم وتؤمنهم من خوف .

* *

فى المدرسة الاعدادية .. قال بعض المدرسين ، ان « **عصام** » « شيوعى » ، فاعترض البعض الآخر وأقسموا أنه « اخوانجى » ، لكنهم اتفقوا جميعا على أنهم نصحوه كثيرا وأنه أهمل نصائحهم . ونهرهم « متولى عبد السلام » ناظرهم ، لا لأن عصام ابن ناظر مدرسة مثله ، وان تكن مدرسة ابتدائية ملحقة بمدرسته ، وانما لأنه أحس بالخوف على نفسه ، وقال لهم : « **كلنا محل شبهة الآن** » .. فصمتوا .. وانشغل الناظر بالبحث عن تبرير وجيه لاستضافته « الأولاد » فى فصول محو الأمية ، وندوات نادى المدرسة .

* *

فى معسكر المهاجرين .. بكت « هدى » ولكنها عندما ذهبت

الى المدرســـة الابتدائية حيث تعمل ، واساها « فتــوح أفندى » **الناظر** ، وقال لهــا : **نحن فى ورطــة ، والأولاد فى خطر** ٠٠ » ، فقــالت له : « **كنت أظن أن ماحــدث فيه الـكفاية** ٠٠ » **وأحست بالشقاء والغربة** ٠

❋ ❋

فى دار «**الشيخ تهامى**» .. قال الجيران : «وليد ابن حلال، وكان فى حاله ٠٠ » لكن الشــيخ صرفهم بالحسنى ، ولام زوجتــه « **الست أم خالد** » : « **كفى عن البكاء يا امرأة ، فالدموع لن تزعزع زنازين القلعة**٠٠» ، ثم أضاف بنفاذ صبر : « **اللهم ارفــع مقتك وغضبك عنا** ٠٠ » ونهنهت زوجته فقــال لها : « **ثقى فى الله ، فهو يعرف أن الأولاد أطهار ، رغم ما سببوه لى من حرج فى البلد والعمل** ٠٠ » ، وقام يصلى مستغيثا باليقين ٠

❋ ❋

فى سوق الفراخ ٠٠ قالت « **وجيدة الفلاحة** » : « يقولون انهم هربوا من الجيش ٠٠ » فاتهمتها « **بلطية** » المهاجرة ، بقلة العقــل **وأوضحت** لها المسألة : « **الأولاد مازالوا فى الجامعــة ياهبلة** ٠٠ » فدهشت وجيده وقالت : « يعلم ربنا أنهم ماسرقوا وما زنوا » ٠٠

❋ ❋

فى سوق الحمير٠٠كان «**مخيمر**» لا يعرف كيف يساوم ويفاصل **كعادته** مع الزبائن ، عندما سأله أحدهم : « أصحيح ٠ وليد نسيب **خالك** الشيخ تهامى٠٠شيوعى ؟ ٠٠ » ، وانخرس « **مخيمر** » وحاول **التخمين** بمصير خاله الذى سجن ظلما فى سنة ١٩٦٥ ، وعادناقصا **خصــية** ، لكنه ما لبث أن قال ساخرا : « يظهــر ــ والله أعلم ــ أن **الأولاد** هم سبب الهزيمة ! ٠٠ » ٠

في مقهى عبد العاطى ، سعل « **الأسطى عطوه الكهربائى** » ، وأحس بالرضا عن نفسه وبالاطمئنان على مشروعه الذى لم يكلفه غير مولد كهربائى «مستهلك» ، وأحصى فى سره ٠٠ أرباحه من انارة البلد ، ثم قال لعبد العاطى : « وحياة أمى وأمك ٠٠ الأولاد كانوا جواسيس ٠ وكانوا يكرهون البلد ، **والا فقل لى بذمتك ، لماذا قالوا أننى أغالط فى سعر الكهرباء ؟ ٠٠** » ، **وزام « عبد العاطى » وفكر أن يراجع « عطوة » لكنه استسهل الصمت ، ووضع « تعميرة جديدة فى حجر الجوزة وغمغم فى سره : « من يصدق ان عطوة يأخذ ربع جنيه كاملا عن كل لمبة نور ٠٠ والله انه لكنز وانفتح لك يابن أمينة العميا ٠٠ » ثم تذكر فائدته من وراء « الباشمهندس عطوة » فصمت ٠**

❋ ❋

وفى مخزن الجيش القديم ٠٠ تناقش « **عبده البورى** » مع **حمدى أفندى العرضحالجى** » فى المسألة ، وعرض أن يدفع من جيبه أجر « العريضة » لو وافق حمدى أفندى وكتبها ، وأقسم برحمة أمه الغالية أن « **الأولاد** » كانوا أولاد أصل لانهم دفعوا له ايجار مخزن الجيش ٠٠ لكن حمدى أفندى قال له : « **العريضة لاتفيد فى مثل هذه الأمور ٠٠** » وصمتا ٠

❋ ❋

بعد أيام ٠٠ بعد أسابيع ٠٠ لا أحد يذكر بدقة ، باخ الكلام فى المسألة ، واكتشف أهل البلد ـ لايعرفون كيف ـ أنهم كفوا عن الكلام فى سيرة الأولاد ، وأنهم انشغلوا بأعمالهم ٠٠ واعتادوا رؤية الجهامة على وجه « **الشيخ تهامى** » وهو يعظهم فى صلاة الجمعة ، بصوته الذى مازال جهورا، له وقع اليقين فى آذانهم، واذا حدث وتذكر أحدهم « **الأولاد** » ، وجد من يقول له : « غدا يعودون ٠٠

فهكذا فعلوا مع الشيخ تهامى نفسه ٠٠ أخذوه أيام حكاية الاخوان ثم أعادوه » ٠٠

وظن أهل البلد ٠٠ أن المسألة قد انتهت تماما ، وعندما علموا أن «**المحامى**» قال للشيخ تهامى ، وفتوح أفندى ، وأبله هدى : « **لو أنها قضية مخدرات ، أو قتل مع سبق الاصرار ٠٠ لهان الأمر** » ٠٠

وقال الجميع ٠٠ ان الأيام تداوى الجراح ، وماعاد أحد يفكر فى مصير الأولاد ، لأن أحدا لم يشرح لهم معنى كلام « المحامى » ، وازداد الاحساس بالضآلة والهوان ٠

❋ ❋

وذات يوم ٠٠ فوجىء أهل البلد بنقطة بوليس تحتل دار العمدة ، ورأوا العساكر يدبون فى الشوارع ، ووجدوا الخفراء قد صاروا كلافة خيل وكناسين فى اسطبل نقطة البوليس ؛ وفرح بعض الناس وقالوا: «صار للبلد قيمة» ؛ وقال «على الطعمجى» : « سأفتح محلا للسندويتشات، فغدا يكثر الموظفون وتروج بضاعتى ٠٠ لكن البعض الآخر توجسوا شرا وقالوا : « اللهم اجعله خيرا ٠٠ » وأدرك الجميع أن البلد لم يعد مجهولا فى موقعه البعيد على شمال السماء ٠

❋ ❋

بعد يوم ، أو أسبوع ، أو شهور ، تذكر أهل البلد « **الأولاد الثلاثة** » ، حدث هذا دون تدبير من أحد ، بل وبدون علمهم ، فقد جاء اليوم الأغبر ووقف الفلاحون أمام رئيس الجمعية الزراعية لتقديم الحساب وتجددت المشاحنات وكثر العراك ، ودخل بعض المزارعين والتجار سجن نقطة البوليس ، وضرب العسكرى احدى الفلاحات وقال انها غشته فى كيلة قمح ، وتذكر الناس « **الأولاد** »

وقالوا ان « لجنة الخدمة » التى كونها وليد وعصام ويوسف ، فى اطار مشروع « خدمة البيئة » الذى ترعاه الجامعة ، كانت تحمل عنهم هم الدنيا والدين ..

وأحس أهل البلد بميل جارف للشجار والعنف..حطم أحدهم – فى ليلة – مقاعد مقهى عبد العاطى ، وقطع غيره أسلاك الكهرباء عن نقطة البوليس ، وفتح ثالث رأس «عبده البورى» تاجر الحشيش والأفيون ، وطلق رابع زوجته ، وأصبح الكبير والصغير يقول : « **ما كان ينبغى أن نخرج الى الحياة** » .

وأدرك رئيس النقطة –الضابط وجدى– أن الأهالى متحفزون فى كل مكان ، وخشى أن تصبح الوقاحة فى الناس جميعا ، فاستعان بالشيخ تهامى وفتوح أفندى وأبله هدى ، وأحس أهل البلد بالاحراج .. ثم اطمأنوا . فقد كان للثلاثة مهابة فى القلوب ، وظن الجميع أن الهناء سيدوم .

لكن « بلطية » ، أجمل نساء البلد ، واشهرهن على الاطلاق والتى تخجل منها نسوان الفلاحين والمهاجرين ويغرن منها ، فقدت عقلها ذات يوم ، وجعلت أهل البلد يحسون بفداحة الذى حدث « للأولاد » ، ويتذكرون أن غيابهم قد طال ، فقد كان مافعلته جميلة الجميلات « بلطية » بداية أحداث يطول شرحها .

٢ ـ الحادث المروع :



حدث كل شيء بسرعة.. لدرجة أنه كان من الصعب ــ فيما بعد ــ أن يتذكر أحد بدقة ، كيف بدأ الحادث ، كان الولدان « خالد » و « نور » يسيران متجاورين فى الطريق الى المدرســة ، ولسبب ما تبادلا الســباب ، وتناطحت حقيبتاهما ، ثم خبط أحدهما الآخر بكتفه .. وفى لحظة واحدة ترك كل منهما حقيبته تســقط على الأرض ، وتلاحما فى العراك بشراسة ، وحــدث أن أوقع أحــدهما الآخر على الأرض .. وحدث أن أحدهما أمسك بظلطة وضرب الآخر فى رأســه ووجهــه وظهره ، فارتفع الصراخ وسالت الدماء وتجمع الناس .

كان من الصعب ــ فى البداية ــ معرفة من الذى أصيب ، أو أيهما جرح ، لكن الأمر صار واضحا وضــوح شمس ذلك اليوم من صيف شهر يونية ١٩٦٨ ، عندما أسرعت « **بلطية** » وفى يدها ابنها « **نور** » والدماء لم تجف بعد على وجهه وثيابه ؛ وعبرت الشــارع قاصدة دار « **الشيخ تهامى** » .

فتحت « بلطية » الباب بدفعة قوية من يدها وركبتها فانخبط فى الجدار وعاد ينغلق فى وجهها بقوة رد الفعل ؛ فعادت تدفعه وقد أججت حركة الباب ذى المفاصل الطرية غضبها ؛ وصرخت بمــلء صوتها مهددة أهل الدار بفضيحة لم يســمع أحد بمثلها اذا لم

يسلموها « ابن ستين كلب » خالد لتعلمه كيف يحترم التراب الذى يسير عليه ابنها « نور » ٠

٠٠ خرجت لها الجدة العجوز تسترضيها وتلح عليها أن تتفضل بالدخول وانتظار عودة الشيخ تهامى من الجامع ليصالحها بنفسه ويضرب مقصوف الرقبة خالد بالفلقة أمامها ليرتاح بالها ٠

لكن «بلطية»٠٠رفضت بعناد أية محاولة للضحك عليها ٠ وأصرت على تسليمها « **خالد** » لتعلمه الأدب بنفسها مادام أهله قد عجزوا عن تربيته كما يجب ٠

حاولت الجدة العجوز أن ترفع قامتها المقوسة بفعل الزمن وهم السنين ؛ لتطبطب على كتف « **الست أم نور** » ، وبالفعل تمكنت اطراف اصابع الجدة ـ ذات الجلد المكرمش الجاف ـ من لمس صدر « **بلطية** » لكن **بلطية** نترت ذراع الجدة بغل متزايد ، فاختل توازنها وسقطت على أرض « حوش الدار » وطقطقت بعض عظامها فانهارت تماما على الأرض التى تنشع بالرطوبة ، وأخذت تتوجع وتئن ٠

عندئذ فقط ، نسيت « **الست أم خالد** » تنبيهات زوجها **الشيخ تهامى** ، وهى تنبهات تحذر عليها الوقوف على الباب أو الاطلال من الشبابيك ، كما نسيت خوفها من « **بلطية** » ذات السمعة المعلنة فى البلد كلها ، وهرولت خارجة من حجرتها ، وفى نيتها أن تنحنى على أمها لتطمئن على أنها لم تمت بعد ، ثم تحاول حملها الى حجرتها ٠

لكن « **بلطية** » قطعت عليها الطريق ، فتجمد الدم فى عروقها ٠٠ وامتدت أصابع « **بلطية** » الى شعرها ، قبضت على ضفيرتيها المجدولتين بعناية تتناسب وطول شعرها الأسود ، ووسامة وجهها الحمرى الجميل ، وفى جزء من الثانية كانت « **بلطية** » قد تمكنت من

الضفيرتين ، لفتهما بسرعة حول أصابعها وسحبتها الى خارج الدار ، وقالت النسوان : — « **ستكون عاركة لرب السما وحياة سيدى راضى ..** »

فشلت « **أم خالد** » فى ايقاف الفضيحة ، تشبثت أصابع قدميها فى أرض « حوش الدار » الرخوة ، تعلقت ذراعها بالباب ، التصقت فخذها فى الجدار ، لكنها وجدت نفسها فى الشارع ، وسط العيال والنسوان والرجال .

حاول الناس تهدئة « **الست أم نور** » دون جدوى ، فأخذوا يرقبون العراك بفرح غامر ، عبر عنه العيال بالصياح وخبط الأرض بأقدامهم وبالتهليل من حين لآخر ، وكز الكبار على شفاههم ، وتدافعت الدماء فى عروقهم ، وشاركوا بكل رغباتهم فى العراك وهم يتفرجون .

ظلت « **بلطية** » تضرب « **أم خالد** » وظل لسانها يسلخ كرامتها ويخدش شرفها ، وأم خالد صامتة مستميتة فى محاولة واحدة : أن تنفلت من يدى بلطية وتهرول الى دارها ، وتغلق الباب ، ثم تجرى الى حجرتها وتأخذ ابنها « خالد » وتكتفه بركبتيها ، ثم تضربه وتضربه حتى تهدأ نفسها ، ثم ، وبعد ذلك ، تبكى على مافعلته بها بلطية أمام الناس ؛ وعلى ما سيفعله الشيخ تهامى بها فى غيبة أخيها « وليد » .

لكن **بلطية** لم تشأ ان تتركها تفلت منها، فقد أدخلت قدميها **كأسلحة اضافية و « شنكلت » أم خالد ، جابتها الأرض وبركت فوقها ، وعندئذ جاء دور أسنانها فعضت أم خالد فى خديها حتى أدمتهما ، ثم .. وعندما حاولت ((أم خالد)) الانفلات فجأة امسكتها بلطية من أذنها اليسرى وجذبتها بعنف جعل فردة الحلق تشرم أذنها وتسقط — قيل بعد ذلك ان بلطية أخذت فردة الحلق ، وهو حلق**

٠٥

مخرطة ومن الذهب الاصلى، وقيل ان بلطيةرمتها على طول ذراعها فوقعت فى التراب ، وقيل ان أحد الواقفين ، أو احداهن ؛ قد غنم فردة الحلق ـ وصار للفرجة متعة قاسية ٠

لم يكن باستطاعة أحد أن يخمن كيف أومتى ينتهى الشجار ، فهم فى البلد يعرفون أن « **بلطية** » لا تهتم اذا ضربها أحد أو غالطها فى أجرها ـ ان جرؤ أحد على ذلك ـ ولا تشغل بالها بما يقال عنها ، فهى تذهب الى الرجال والشبان فى المواعيد المتفق عليها بدقة وغندرة ولاتبالى بشىء ، ولايرهبها حتى الشيخ تهامى ذاته ، بل انها عندما ابلغها أحد رفاق ليلها ان الشيخ تهامى قد سبها ولعنها فى خطبة الجمعة لم تفعل أكثر من أنها أخرجت لسانها وطلبت من رفيق ليلتها تلك أن ينام معها مرة أخرى بلا مقابل ، وطرقعت لبانتها بشفتيها الدسمتين وقالت : « لو كان رجلا لحمى الأولاد ٠٠ »

أهل البلد يعرفون أيضا ان **بلطية** ، جميلة الجميلات ، لاتتسامح أبدا فى حق ابنها « نور » فهو كل ما تبقى لها فى الدنيا ، فقد سافر أبوه الى بور سعيد منذ شهور ، قال انه ذاهب ليبيع قاربه ، أو ينقله الى الاسكندرية أو دمياط ، عله يجد رزقه بين البمبوطية هناك ويعود لها ولابنهما ببعض المال حتى لا ينفضحوا فى الغربة ويتسولوا أرغفة الخبز من الفلاحين ، لكنه اختفى وانقطعت أخباره مثل « الأولاد » ٠٠ كما انها فقدت أهلها عندما دمرت احدى الطائرات عربة النقل التى حملتهم فى هجرة ٥٦ الى الريف ٠

لذلك خمن الجميع انها لن تترك أم خالد قبل أن تشرب من دمها ، فالمسألة تخص ابنها « نور » الذى كانت دماؤه تنزف من جرح يصعب تحديد عمقه واتساعه فى جبهته قبل أن يجف الدم أو يوقف ٠

لكن **الشيخ تهامى** ظهر فجأة ، لم يره المشاهدون ، كبارا

وصغارا، رجالا ونساء، وقد تزايد عددهم بمرور الدقائق دون أن يدرى أحد ٠٠ ولم ينتبه أحد لوصوله ، حتى أولئك الذين ازاحهم بذراعيه ليشق لقدميه طريقا الى قلب المعركة ، كانت ثمــة اجزاء كثيرة من جسدى المرأتين قد انكشفت ، وكانت أم خالد قد بدأت ترد الصاع صاعين لبلطية ، لكن بلطية اسرعت توجه ضربة بركبتها الى بطنها ، فتأوهت أم خالد وازدادت شراســة ٠٠ وضج الصبية بالتهليل واندمج الكبار فى الأحداث ، بعضهم يشجع بلطية وبعضهم الآخر يشجع أم خالد ويشير عليها بحركة تحسم المعركة لصالحها ٠٠

لكنهم ، وفى اللحظة التى لم يتوقعها أحد على الاطــــلاق ، فوجئوا بصوت الشيخ تهامى ؛ قويا غاضبا ؛ يصيح :

ـ « كفى يا قليلة الحيا منك لها ٠٠ » ٠

عندئذ اكتشف الجميع وجود الشـــــيخ امامهم بهامته الفارعة ووجههالصارم الملامح والنظرات، رغم وسامته الرشيقة ومسبحته التى يتمنى العيال رؤيتها ليلا ، لانهم سمعوا انها تضىء فى الظلام لأنه مسح حباتها حبــة حبــة فى شباك النبى عندما ذهب للحج منــذ سنوات ٠

كانت أصابعه تقبض الآن على المسبحة بعصبية ، كانت ياقة جلبابه ذات القطان الحريرى ، تكشف عن عظمتى صدره البارزتين وعنقه الطويل الذى تبرز فيه تفاحة آدم ، وكان حذاؤه « الأجلسية » مكعوبا على غير عادته ٠ عاد يصيح بغضب مضاعف :

ـ « قلت كفى ٠٠ »

انه الشيخ تهامى اذن بلحمه ودمه ومهابته أمامهم ٠ فارتبك الجميع ، حاول بعضهم التدخل ليفصل بين أم خالد وأم نور ، لكن صوت الشيخ أوقفهم كأن على رءوسهم الطير بصوته الذى له وقع اليقين فى آذانهم :

ـ « واغضوا الطرف ياكفرة ! •• »

وتذكروا جميعا صرامة الشـــيخ تهامى وغيرته على الدين ، وتقريعه من يخدش حياء البلد ، فنكسوا رءوسهم ، وهرول الصبية باحثين عن منفذ للهرب بجلدهم ، فهم يعرفون طعم عصـــاه فى « الكتاب » حيث الويل والثبور لمن يهمل فى الواجب •

•• اقترب الشيخ من زوجته ، لمس كتفها بمسبحته ، فعرفت دون حاجة لتفكير أو مناقشة أنه قد آن لها ان تهرول الى داخـــل الدار ، فكفت يديها وقدميها وأسنانها فورا عن « بلطية » وهمت بالاتجاه الى الدار ، لكن أصـــابع بلطية كانت مطبقة على جلبابها ، وبارتباك وخوف ، حاولت « أم خالد » تخليص جلبابها وفشلت ، فازداد فزعها وجذبت نفسها بقوة ، فى اللحظة نفسها التى جذبت فيها بلطية الجلباب ، وفى جزء من الثانية تمزق الجلباب ، انشق تماما حتى ثنية ذيله، فملأ أذنيها طنين ملايين الضبابير ودارت بها الدنيا، وشهقت وسقطت على الأرض •

صرخ الشيخ تهامى مستعيذا من الشيطان الرجيم ، وانحنى يحمل زوجته وقد أربكه الخجل والاحساس بالعار •

أفاق الناس على المشـــهد المروع ، لقد رأوا أم خالد عارية وأخافتهم عشرات الاحتمالات المتوقعـــة ، وحاولوا الفتك ببلطية ، لكنها كانت تهرول الى معسكر المهاجرين •

توهجت الشمس ، ولمع الملح فى الحقول والمصارف والترع ، وصمت الهواء ، وشحب الزرع والسمار والهيش ، وبدت البلد ضئيلة وسط النجوم والكفور المتناثرة فى هذه البقعة من أراضى الشمال . وقال الناس :

ـ « لو أن أخاها وليد فى البلد لمنع الفضيحة •• »

٣ ـ الكراهية تستيقظ فجأة :

« قفزت ـ أم عديلة ـ كالكلب المسعور .. فوق ـ بسيمة ـ الجميلة .. وصارتا عاريتين .. وقالت بحقد : أنا فاجرة ؟! ..»



في ساعة ، في دقيقة ، في ثانية ، عبر الخبر من سـطح لسطح ، انزلق فوق أكوام القش وأحزمة الحطب ، علقت به رائحة الزرائب وصار له طعم التراب والدم ، وتلقفته جارة من جارة ، وأضافت اليه النسـوان ما يعتقدن أنه حدث وما يقسـمن انه انكشف ، ومسحت احدى الفلاحات أنفها في ذيل جلبابها وقالت :

ـ « ستكون سيرة البلد على كل لسان » ..

وقالت أخرى : « بلطية دائرة على حل شعرها ولا تجد من يكسرها » ..

وهبطت « **أم عديلة** » سلم دارها بحمل القش وبجسـدها السمين المترهل ، صدمت قدمها بطاجن به ماء لشرب البط والأوز الذى تزغطه من أجل « **مخيمر** » منذ جاء لها بضرة على آخر الزمن، وانخبطت فى جدار غرفة المعاش ، فصاحت وشتمت ابنتها «**عديلة**» التى تلعب مع عيال الحارة ولا تريد أن تتعلم شيئا من شغل البيت مع انها « على وش جواز » .

حاولت ضرتها « **بسيمة** » أن تهدئها ، فهبت فيها أم عديلة واتهمتها بأنهـا هى السبب فى ميلة بخت الكل منذ هلت بطلعتها العكرة فى الدار .

ظلت « **بسيمة** » محافظة على كلامها خوفا من « **مخيمر** » الذى يحلو له أن يجمع زوجتيه حوله ليستمع الى شكاواهما المتبادلة ، ثم سرعان ما يضـــيق بهما فيضربهما ضربا يميت الحمـــار بخيزرانته الطرية ٠

لكن « **أم عديلة** » أصرت على تصعيد النقار ، اتهمت بسيمة بأنها عملت «**عملا**» لتلطش منها « **أبو البنات** » ، وبكت «**بسيمة**» ، وهذه عادتها كلما ضيقت عليها « أم عديلة » الخناق ، لكنها هذه المرة كانت تريد أن تتصدى لضرتها وتوقفها عند حدها ، تمنت أن تقول لها انها كانت تحب ابن عمتهـــا « **محروس** » الذى اتفق مع أبيها على الزواج منهـــا بعد أن يعود من « حرب اليمن » لكن اليهود ضربوا بور سعيد ووجدت نفســـها مع أهلها فى « **معسكر المهاجرين** » وتاهت منها أخبار « **محروس** » ســـمعت انه مات فى جبال اليمن ، وسمعت انه مات فى صحراء ســـيناء ٠ وقال لهم خطاب من الجيش ، انه « **مفقود** » ٠

وذات يوم زارهم « **مخيمر** » جاء يبيع لأبيها حمارا يسرح عليه ببضـــاعته : الشـــطة والكمون واللبـــان الدكر والفاســـوخة واليانسون والكراوية ٠ ورأته « **بسيمة** » طويلا نحيلا شهما أسمر الوجه ، ورآها « **مخيمر** » بيضاء جميلة تشرح القلب وترد الروح ، وتكررت زياراته لهم فى المعسكر ٠

وفى ليلة سمعت أمها تقول له : « **بسيمة ابنتى وأنا أعرفها ٠٠ ستلد لك ، ومن أول مرة ، الولد الرجل الذى تتمناه** » ٠٠

وتشبثت « **بسيمة** » بحبهـــا **لمحروس** ، قالت : **قد يعود ٠ وقال والدها انه أعطى كلمة للرجل ، وقالت أمها : من قال لك ان محروس سيعود يا هبلة ٠٠ وتجرأت « بسيمة » وقالت انهـــا « تحب محروس » ٠ فصرخت أمها : « انكتمى يافاجرة »** ٠

مرضت « بسيمة » لا تدرى كيف ، وطال مرضها ، فذهبت بها أمها الى « **الحاجة نفيسة** » خليفة الشيخ راضى صاحب المقام المدهون بالجير الأبيض والنقوش الخضراء والحمراء غرب البلد ، لتعمل لها حجاب الشفا .

* *

● ملحوظة : يقال فى البلد ان « الشيخ راضى » كان من خدم جامع النبى فى أرض الحجـــاز ، وانه كان يغمض عينيه فى ليـلة الجمعة ويسافر الى مكه والمدينة ، ثم يعود بعد صلاة الجمعة ليفتح بابه لأهل البلد ويدعو لهم بالستر والصحة ، ويقال أيضا انه كان يرفض الهدايا والنقود ، وان خادمه « سليمان » كان يجمع النذور من الزوار ، وكان يعطى لسيده ومولاه القروش البيضـاء المخرومة ليشترى بها أطفال البلد من الأمهات الفزعات من المرض والموت ، وأغلب رجال البلد مازال فى حوزتهم هذه القروش منذ كانوا صغارا ، و « بسيمة » مازال فى عنقها فتلة خيط يتدلى منها القرش المخروم منــذ زارت « سيدى راضى » مع أمها وأبيهـا فى هجرة ٥٦ كانت « بســيمة » صغيرة يومها ، وعندما مات ولى الله وأقامت له خليفته « الحاجة نفيسة » المولد الســـنوى ، ظلت « بســيمة » تزوره كل عام ، فهذه عادة لم تخلفها أمها ولم ينسها أبوها الذى كان يجد فى « المولد » سوقا رائجة لبضاعته .

* *

صاحت « **الحاجة نفيسة** » : « مدد يا أهل البيت » ثم أخلدت للصمت وانشغلت بتحريك مسبحتها الطويلة المدلاة من عنقهـــا السمين ، بيديها المتجاورتين فى حجر جلبابها الأبيض الفضفاض . وأشـــعل « سليمان » النـــار فى الموقد وأطلق البخور ، وقعدت « بسيمة » على البلاط منهوكة شاحبة بجوار أمها المأخوذة بما تراه.

يومها قالت « **الحاجة نفيسة** » : ان البنت معمول لها عمل ، وان « العمل » فى ماء مرشوش على عتبة الدار ، لم تقل أى دار ، أفى بور سعيد أم فى معسكر المهاجرين ثم صاحت : « هو الحى القيوم » ٠٠ وصمتت ٠ كان ذلك ايذانا لبسيمة وأمها بالانصراف ، فخرجتا ٠٠ وعلى الباب اعطاهما « سليمان » الحجاب وتقاضى النذر وطلب كيلة قمح ودجاجتين وفطيرتين ، وأقسمت « أم بســـيمة » بمقام « الشيخ راضى » انها ستجعل « مخيمر » يرسل له ما طلب وزيادة ٠ عندئذ قال « **سليمان** » ان « **مخيمر** » شاب جدع وابن حلال ، يكسب الكثير من أرضه وحميره ، ثم أضاف : « لا تنسى حق ولى الله وخادمه فى خيرات الافراح والليالى الملاح » فاعطته أم بسيمة قرشا آخر فضحك وأعطاها ورقة مطوية وقال : «احرقيها فى نار بها **بخور** وقليل من أظافر العفاريت » ٠٠

وفى الطريق الى المعسكر٠٠بكت بسيمة ونهرتها أمها ، وسألتهما « **وجيدة الفلاحة** » ـ وكانت عائدة من الغيط مع الانفار ـ « الزواج سترة للبنت فى الغربة ٠٠ لكى امتى ان شاء الله نشرب الشربات »٠

وتمنت بسيمة لو ان الأرض انخسفت بها ، لكن أمها جرتهـا من ذراعها وهى تقول لوجيدة : « الفرح بعد يومين ، عقبال عدلك » ٠

يومها أسلمت « **بسيمة** » أمرها لله ، بعد ان عجزت عن معرفة البلد التى هاجرت اليها عمتها **((أم محروس))** فى هوجة الحرب ، وأرسلت أمها احد عيالها بثلاث بيضات الى دكان « **محمود رمضان** » ليشترى قليلا من أظافر العفاريت ، قالت له ذلك فى السر حتى لا تســـخر منها « أبله هدى » والمهـــاجرات اللائى جئن لزيارة « بسيمة » ٠

❋ ❋

● **ملحوظة : « عرفت أم بســـيمة ـ بعد ذلك ـ أن محمود**

رمضـــان كان يبيع أظافره وأظافر ابنته وجيدة ومخلفات ســـوق الحمير ، على أنها أظافر عفاريت ، ومن يومها أضـــاف زوجها الى بضاعته الرائجة فى الكفور هذا الصنف الجديد النادر » ٠٠

*** ***

أرادت « **بسيمة** » أن تقول كل ذلك ــ وأكثر منه لضرتهـــا « أم عديلة » ، لكنها خافت أن تفتن عليها عند « **مخيمر** » ، فيكون نصيبها من الخيزرانة مضاعفا ، فظلت صامتة ٠

لكن صمتها أغاظ « **أم عديلة** » التى ظلت « تهـــاتى » وهى تخبز العيش بخبطات كالطبل المكتوم ، ثم قالت :

ــ « أمك عينها فارغة ٠٠ طمعت فى أرض أبو البنات ٠٠ وهو تاجر حمير لا يميز ٠٠ » ٠

ثم لعنت اليوم الأسود الذى حدث فيه ذلك ، ولعنت من كانوا السبب ، وقالت :« آه منك يا فاجرة ٠٠ » ٠

فزعت « بسيمة » وسال العرق على جلدها ، وغرست أصابعها فى العجين ، جاء فى ذهنها عشرات الصور المرادفة لكلمة « فاجرة »: « بنت المنصورى » ضبطوها فى مخزن الحمير مع عوضين الشـــيال وضربها غفـــير المخازن وصمم ان ينام معهـــا ، ويومها قالوا فى « المناخ » : « بنت المنصورى فاجرة » ٠٠ و «بنت بهية الصعيدية» حلوة الحلوين فى حى المناخ ٠ قتلها زوجها « رزق » البمبوطى قبل الحرب وقال انها فاجرة تنام مع جرابيع البواخر ، و ٠٠ «بلطية» وحكايتها على كل لسان فى البلد من شرقها لغربها ، ويقولون انها « فاجرة » ٠٠

صرخت بسيمة فى وش ضرتها وقالت : أنا فاجرة يا بنت الكلب » فقفزت « أم عديلة » كالكلب المسعور من أمام الفرن وبركت فوق بسيمة ، مزقت جلبابها ، نسلت شـــعرها ، خربشت وجههـــا وقالت : « فاجرة وبنت فاجرة ٠٠ كلكم من عينة بلطية » ٠٠

وتمكنت «بسيمة» من ضرتها ، أسعفها شبابها وخوفها فركبت بطنها وعضتها فى وشها وصرخت : « أخلع عنيكى الاتنين يا بنت ستين كلب » .

وأسرعت بعض الجارات وعافرن كثيرا حتى فصلن بين الضرتين وقالت احداهن ، وهى تحسد « بسيمة » لجمالها الواضح من جلبابها المشقوق :

ـ أما كفانا أم خالد وبلطية ؟ ..

قالت بسيمة :

ـ تقول لى أنا .. يافاجرة ؟ ..

فقالت أم عديلة :

ـ وستين فاجرة يا بنت ..

قالت بسيمة والغيظ يملؤها :

ـ أنا أشرف منك ومن أمك ..

* *

فى الليل ، عندما رجع «مخيمر» من سوق الحمير ودخل الدار انخرس كل حس ، انكمشت ابنته عديلة وأخواتها الصغيرات بجوار أمهن ، وتجمدت الدماء فى عروق بسيمة ، لكنه ادهشتهن جميعا لم يقل شيئا .. لم يقعد بينهما للتحقيق ، لم يهددهما بالخيزرانة ، لم يسأل ان كان «على ابن سعيده» الذى يعمل عنده مقــابل طعامه وكسوته ، قد سقى الارض ام لا ، كل مافعله «مخيمر» كما خمنت كل منهما أنه ساق الحمــار الذى ذهب لشرائه لأجل خاطر شيخ البــلد ولأجل ما وراءه من ربح مؤكد ، ساقه الى الزريبة ثم تمخط وبصق وأشعل سيجارته وجلس فى حوش الدار ، تربع على الحصيرة وأسند ظهره الى المسند المحشو بالقش ، وفجــأة باغتهما صوته : « ياولاد .. »

لم يقل «ولاد الكلب» كما تعودنا منه فقالتا : «اللهم اجعله خيرا » وقرأت أم عديلة آية الكرسى مرتين فى لهوجة وخطفت ثديها من حلق ابنتها وهرولت ، انخبطت فى ضرفة البـاب الموارب ٠٠ رفعت شريط اللمبة نمرة « ١٠ » ووضعتها فوق غطا الزير ، وفى ثانية ٠٠ كانت قابعة فى ولاء الكلب أمام زوجها ٠ لم تقو على التنفس براحتها فازداد قلقها وأحست بعد لحظة ـ وبحكم عادة كل ليلة منذ أصبح لها ضرةـ أن «بسيمة» قد جلست فى الطرف الآخر للحصيرة فملأها الخوف٠٠وتمنت لو أنها قامت وقبلت رأسها ويديها اذا أرادت لكيلا تقول شيئا عن عراكهما فى الخبيز ، فهى تعرف طعم خيزرانة مخيمر ، وتعرف قسوة هجره لفراشها بالاسبوع والشهر ٠ لكن الصمت طال فأسلمت أمرها لله وفرت الدموع من عينيها ٠

سأل مخيمر : « صحيح عملتها بلطية يانسوان ؟ ٠٠ »

وللحظة ، كادت أم عديلة تبتسم ، بل تضحك ، فقد احست بكربها ينزاح عن صدرها ، لكنها وجدت نفسها تقول بلا حذر : « ابن خالك هو ســـبب المصيبة » ٠ وانكتمت عندما زام مخيمر وخبط الحصيرة بالخيزرانة وقال : «وانفضح خالى فى البلد»

أرادت **أم عديلة** أن تعتذر عن تقصيرها فى نجدة أم خالد ، فكرت أن تقول له انهـــا خافت أن تخرج دون اذن منه ، أو انهـا خرجت فعلا لكن الشيخ تهامى كان قد وصل وأنهى الخناقة ، لكنها خافت أن تثير زوجها دون قصد فتـــكون ليلتها أسود من الكحل الغامق حول عينى البنت بسيمة ٠٠ فصمتت ٠

وقالت بسيمة : « غلبت أمى وكل المهـاجرين مع بلطية ٠٠ لكنها تلعن من ينصحها ٠٠ »

لم يعـــلق « **مخيمر** » بل انه اهتز ، أحس بأنه اهتز ، وأن خيزرانته كادت تنفلت من أصابعه ـ التى يزينها خاتم عريض من

الفضة ـ فهو يعرف أن «بسيمة» تعرف علاقته مع «بلطية» وانها عاتبته فى ذلك ·· وليلتها فعلت معه ما لم تفعله منذ تزوجا ·

لم يرفع «مخيمر» عينيه الى بسيمة ، ظل ينظر للهلال والجامع المنقوشين بالاخضر والاحمر فى الحصيرة ·· وقال :

ـ يقولون ان أم خالد كانت عارية وسط الناس والشارع ·

قالت أم عديلة :

ـ فضحتنا بنت الكلب ·

وقالت بسيمة : « لولا خوفى منك ياسيد الرجال لخرجت لها وجعلتها ترجع بورسعيد ماشية ·· »

انبســـط « **مخيمر** » من بسيمة ، وفى اللحظة نفسها أحست «أم عديلة» انها خدعت ، وقالت فى سرها : «ان البنت البورسعيدية كهينة» .. سبقتها الى استمالة قلب الرجل ، وانها هى لا حظ لها فى الدنيا و « مخها ضلم » لا تعرف حلاوة اللسان مثل بسيمة الملاوعة وقالت : «بخت مائل من كل ناحية» ثم أضافت لنفسها : «ان الحرب جاءت على دماغها هى دون كل الناس» ·

قال مخيمر : « أروح للشيخ تهامى ·· »

ثم أضاف وهو يضع مداسه فى قدميه :

ـ ستكون حكاية كبيرة ·· ركبتنا بلطية وقـد يمـوت خالى بسببها ··

·· خرج من الدار، أغلق الباب بغضب هزه وأفزع بسيمة وأم عديلة ، اللتين تبادلتا نظرات مليئة بحرج غريب على حياتهما وقد أخافهما الحقد المتبادل ، والكراهية التى استيقظت فجأة بداخل كل منهما ، فانكمشتا ، كل فى حجرتها ، بحذر وقلق ·

٤ ـ خالد يعد النجوم :



«لايصح وأنت فى عز الشباب،
أن تضيعى عمرك مع رجل اكتهل
قبـــل الأوان .. فتجــرأت
واخــذته فى حضنها ! .. »

كان الصمت مليئا بشتى الاحتـــمالات الوشيكة على الانفجار كلها فى لحظة واحدة طال ترقبها ، لكن الشيخ تهامى ظل متمسكا بخيوط الصبر التى يشعر الآن فى أعمق أعماقه أنهـــا أوهى من خيوط العنكبوت . أخذ ينقل حبات مســبحته بأنامله فى تعجل ، فكان ينقل كل حبتين أو ثلاث دفعة واحدة ، ثم يقطع حركة أصابعه فى منتصف المسبحة أو ثلثها ليبدأ من جديد ، وكان يمل ذلك كله فينقل المســـبحة من يد الى يد ويقبض على « شراشيبها » الطويلة الخضراء الباهتة الخيوط ، ثم قال فى نفاد صبر : «أف لهم هؤلاء الناس أف ..» وأسرع يستغفر ربه ، وتلا ما تيسر من القرآن : « أنه يعـلم الجهر وما يخفى . ونيسرك لليسرى . فذكر ان نفعت الذكرى . ســـيذكر من يخشى . ويتجنبها الأشقى . الذى يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيى » .

وتذكر امتهانه فى سجن القلعة ، رغم ثبـوت براءته ، ودعا «للأولاد» بالصبر ، ثم قام وفرش لنفسه سجادة الصلاة .. حاولت زوجته «أم خالد» أن تفرشها له كعادتها لكنها عجزت عن القيام من ركن الحجرة ، وخاف ابنه « خالد » أن يتـــحرك من الركن الآخر للحجرة .. ظن أن سكوته سينسى أباه الأمر كله وخشى ان هو تحرك آن يتذكره والده ، وعنــدئذ تدور عليه الدوائر فيمده فى

الفلقة ويشبعه ضربا حتى تسيل الدماء من قدميه · فأخذ يرقب والده بطرف عينيه وهو يصلى ·

لم يكن أذان المغرب قد أعلن بعد من مئذنة الجامع ، ولم تكن ثمة صلاة فاتت الشيخ تهامي ، لكنه خاف من ضعفه فاحتمى بالله: «**بسم الله الرحمن الرحيم · والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها، والنهار اذا جلاها ، والليل اذا يغشاها ، والسماء ومابناها والارض وما طحاها ، ونفس وماسواها ، فألهمها فجورها وتقواها ·· »**

هبت عليه نفحة من ذكرياته في الازهر ، يوم كان في عمر «**الاولاد**» وحماسهم وتعـلق **بجهاد جمال الدين الافغاني** الذى عمل الكثير واضطهد أكثر فى سبيل دعـــوته لازالة التراب عن المفهوم الثورى فى الاسلام ضد الاستعمار والاستبداد والفساد ·· ثم أحب **فكر محمد عبده** الذى جاهد لابراز المفهوم الحضارى للاسلامفاصطدم بتفسيرات عهود الانحطاط ودعاة دين الجوارى والقصور ، واعترف أن «الاولاد» كانوا يحرجونه بمناقشاتهم وأنه قصر فى حمايتهم ، فازداد احساسه بالشقاء وهتف من كل خلجة فى وعيه مستغيثا : «**اللهم أعنى على نفسى ·· واهدنى الصراط المستقيم ··**»

كان يريد أن يعرف أى طريق يسلك . هل يواجه اهل البلد كلهاويعلن لهم أنه لايخجل منهم، وانهموان كانوا قدشاهدوا امرأته عارية فان ذلك ليس ذنبا أو جريمة وليس عارا له هو بقدر ما هو عار لكل الذين تسببوا فى انحراف انسانة شقية مثـل « **بلطية** » وجعلوها تفقد كل من يحيمها وتفقد احترامها لنفسها ولأهل البلد الذين استضافوها مع غيرها من المهـــاجرين · أم يخضع لأهوائه ويطلق أم خالد لكى يضع حدا للأمر كله ويحفظ ماء وجهه وهيبته فيحفظ بذلك احترامه لرسالته ودينه ويظـل قـــدوة لأهل البلد وجديرا بوقفته على منبر جامعهم واعظا واماما حتى لا يفقدوا ثقتهم فى كلمته مثلما كاد يحدث يوم اعتقل نسيبه « وليد » ·

سأل نفسه : من قال ان طـــلاقه لام خالد ســـيضع حدا للفضيحة ، وأدرك انه فقد قدرته على وزن الامور بروية وأنه صار نافد الصبر وأصبح خائفا مضطربا يوشك على السقوط فى مهاوى الضلالة ، فعلى طرف لسانه سؤال كافر : « لم يارب اخترتنى من بين عشرة آلاف بنى آدم فى هذا البلد الذى كان نسيا منسيا على شمال السماء ٠٠ لتضعنى فى هذا الاختبار الصعب ؟٠٠ »

« ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »

وألصق جبهته بسجادة الصلاة ، وبكى كما لم يبك فى حياته، وطلب المغفرة لنفسه وللناس ، وتمنى أن يكون شجاعا مثل «الاولاد» الذين طال غيابهم ٠

❊ ❊

انشغلت «أم خالد» بمصيرها عن أمها التى مازالت تئن وتزوم فى حجرتها ٠ كانت تعرف أن زوجها الشيخ تهامى منذ تزوجها وهو حريص على سترها ٠ مات أبوها «الزناتى أبو خليفة» وجده الأنفار ميتا فى طين مشتل الارز بأرض التفتيش ، وقالوا ان خولى الانفار ضربه حتى الموت ، وقالوا ان ناظر التفتيش هو الذى فعلها وداس على دماغه بالحذاء ودفن وجهه فى الطين ، وقال محاسيب الناظر ان ثعبانا لدغه فمات ٠ يومها كانت هى شابة وجميلة ومنعها أبوها من الذهاب للغيطان عندما استدار جسمها وكشف عن حسنها فطمع فيها الرجال ، وكان أخوها « وليد » صبيا يعاون أباه فى تدبير ثمن الطعام ، وكان يسرق ملء عبه قطنا أو كيزان ذرة يبيعها « لمحمود أبو رمضان البقال » بقرش أو بملعقة شاى ناشـــف ، وكان أبوه يضربه اذا علم بالسرقة ، ثم فوجئت فى عز «يتمها» بالشيخ تهامى يطلب يدها ، وقالت أمها للشيخ ــ وكان يومهـا فى عز شـــبابه :

« **لسنا من مقامك ولا في جاهك ٠٠ » يومها ضحك الشيخ واستغفر ربه كثيرا ثم قال : « الاصل ونس يا أم وليد » ، فترحمت أمها على «الزناتي أبو خليفة» الذى راح فطيسا ٠٠**

وسمعته هي بأذنها ، من وراء الباب الموارب ، يطرى جمالها وحسنها وأخلاقها ، فاحمر وجهها ورقص قلبها من الفرح ، وكاد «ينط» من صدرها ٠

وليلة الدخلة قال لها ان كل مافي المرأة عورة ولا يصح أن يراها المارة في الشارع وهي تطل من شباك أو باب ، **وأفهمها أنه ليس جاهليا متعصبا ، وانما هو فقط وبصراحة ربنا : يحبها ويغار عليها ، وان الدين سترة لعرى الجسد والنفس وحماية من عيون لا تستحي ، وقانا الله سوءة القيل والقال ٠**

كانت هي ســـعيدة راضية بأوامره وحبه وعطفه ، لكن ٠٠ هاقد فضحتها « بلطية » وجعلتها تقـــف عارية أمام الناس وفي الشارع ، فماذا تبقى لها ؟ ٠٠ **انها تعرف أن زوجها يلجأ للصلاة** ويكثر من تلاوة القرآن اذا كان مقبلا على اتخاذ قرار لا رجعة فيه٠ فعل هذا يوم عاد من «القلعة» ، كان في ربع حاله ، وعندما ضمهما الليل في الفراش صارحها بأنه انضرب بالكرباج وان طرف الكرباج قطع احدى خصيتيه ، وان « عرق الخلف » قد انشل في جسده ، وعرض عليها حريتها وقال : لايصح وأنت في عز **الشباب أنتضيعي** عمرك مع رجل اكتهل قبل الأوان » ٠

لحظتها تجرأت عليه وأخذته في حضنها وقالت: **«انت سترتي في الدنيا والآخرة ، ويكفينا خالد يملأ الدنيا علينا ٠٠ »**

يومها كان **«خالد»** صغيرا يحبو ويملأ الدار مناجاة وسرورا ٠ ويومها سحب الشيخ تهامه عرضه بالفراق ٠٠ لكنها الآن ، وبعد أن

حدث ماحدث ، تشعر بأن مصيرها معلق على كلمة تفلت من لسانه، فابتهلت : « **اللهم اهده الصراط المستقيم ولا تخرب لى بيتنا** » .

وتمنت لو أن أباها لم يمت ، لو أن أخاها وليد عاد الآن ، وفرت دموع القهر من عينيها ·

* *

أدرك «خالد» بشعور غامض بداخله ، ومن مظـاهر الصمت المريب حوله ، أنه مقبل على لحظات عصيبة وعسيرة ، وأنه سيواجه مواقف جديدة عليه ولن يعرف كيف يتصرف ، فهو يعلم علم اليقين أنه السبب فيم حل بأبيه وأمه وجدته من مهانة يراها تعكر صفو الدار وتلتصق بعيونهم وصمتهم وبكائهم ·

كان ، منذ رأى والده يحمل أمه عارية الى الحجرة ، يرتعد ، فقد دهمه الخوف وفقد التحـكم فى نفسه وبال فى ثيابه ، وأدرك أن القيامة قامت ، وحاول أن يقسم على المصحف الشريف أنه لم يكن يقصد أن يضرب « **نور** » بالظلطة ·· لكنه انكتم رعبا ·

كان «**نور**» هو الذى بدأ المشاجرة ، ومنذ فترة وهو يتحرش به ، عندما يلتقيان يبدأ «**نور**» بالضحك والتغامز ثم يحتك به ويثيره بألفاظ مخجلة · وكان «**خالد**» يقول فى سره ان « **نور** » ابن قحبة لأنه يقول للعيال فى فصل « **٣ ـ ٢ ابتدائى** » ان خالد يأخذ بنبونى وشوكلاته من «**حامد أفندى**» مدرس الفصل ·

أراد «خالد» أن يشكو «نور» وعيال الفصل لحامد أفندى ·· لكنه صار يخاف منه ، وتمنى أن يشكو لأبيه لكنه كان يعرف أنه سيودى بنفسه للتهلكة لأنه دائما يتلعثم أمامه ، وقد يشك والده فى الأمر فيضربه ويطرد حامد أفندى اذا جاء لزيارتهم كما تعود ·· منذ جاء مغتربا للبلد· وحلم «خالد» أنه يشكو لأمه فضربته بالمداس

على وجهه وقالت : يجب أن تكون رجلا مثل أبيك وخالك ٠٠ وأضافت : « ان أباك سماك على اسم «خالد بن الوليد» لتكون رجلا مثله ٠٠ »

وفى الطريق ، طلب منه « **نور** » أن يلعب معه « **عريس وعروسة** » ووعده بأنه سيعطيه قرشا يشترى به مايريد من « **دكانة محمود رمضان** » ، فسبه **خالد** وسب أمه بلطية ، فأوقعه « **نور** » والتصق به ووجد « خالد » الزلطة أمامه فدافع بها عن نفسه ، لكنه ، فوجىء بالفضيحة والفرجة أمام باب الدار ٠

أراد « خالد » أن يقول ذلك وأكثر منه لأبيه لكنه عجز ، شله الرعب مثلما حدث يوم قبضوا على خاله « وليد » فانهار فى ركن الحجرة فى انتظار العقاب ٠

مرت اللحظات بطيئة ، كالسفر الطويل الذى صحب فيه والده منذ عام لزيارة خاله وليد فى الجامعة وحضور مولد سيدنا الحسين ٠ لكنه رأى والده ينهى صلاته ويتلفت حوله ، فانتبه لنفسه ، أحس بسرواله المبتل ، عرف أنه ان بقى مكانه فسيكون عرضة لضرب مبرح ، فبذل جهدا كبيرا استغرق جزءا من الدقيقة لكنه ظنه دهرا قبل أن يقف على قدميه وانطلق يجرى من الحجرة ٠

وجد سلم الدار أمامه فصعد الدرجات مهرولا ، صدمت أصابع قدمه اليمنى بحافة سلمة وسال الدم من احداها لكنه لم يشعر بالألم وبالجرح الا عندما دفن نفسه فى كومة من قش الذرة بجوار صومعة الغلال ، وعندئذ انكمش وأخذ يلهث ويمسح الدم من أصبعه ٠

كان الليل ساكنا مخيفا ، احس « خالد » أنه وحيد على سطح دارهم ، على أسطح كل الدور ، فكر أن يجرى فوق الأسطح المتلاصقة

يقفز فوق أكوام القش وخزائن الفراخ والبط والأوز حتى يصل الى آخر البلد ، ويظل يمشى ويمشى على سكة المصرف الكبير حتى يصل الى خاله « وليد » . لكنه فزع .. فهو لا يعرف أين يجد خاله ، سيتوه فى الدنيا الواسعة ، يختبىء فى الهيش والبوص فى البرارى ويجوع ، تخطفه أمنا الغولة ، يجرى فوق تراب الأرض المالحة . يشمر جلبابه ويخوض فى البركة الواسعة يصيد السمك ، يطارد البط البرى ، يبيع جلبابه بصاغ ليأكل رغيف عيش فينو وطعمية كالذى اشتراه له خاله فى مصر ، يرمى نفسه فى البحر الواسع ، يغرق ، يموت ، يأكله السمك ويستريح من الولد «نور» ولا يضربه أبوه .

هب واقفا مفزوعا فقد سمع خشخشة فى القش ، تحته ثم اكتشف ـ بعد أن نشف دمه ـ أن فأرا يحاول النفاذ الى صومعة الحزين ، وحمد الله أنه ليس ثعبانا ، وعاد يدفن نفسه فى القش . وجد السماء فى وشه فبحث عن ربنا بعينيه لينقذه ، رأى النجوم تلمع فى الظلام ، أخذ يعدها : ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧ ـ ٨ ـ ١٢ ـ ١٦ ـ ٢٠ ـ زغللت عيناه وتذكر « **على الصياد** » حلاق الصحة فى البلد والذى يطاهر العيال ويخلع الضروس ويعالج الناس ويكوى المواشى ، سأله « على الصياد » فى مرة :

ـ « **أتعرف عدد النجوم ياخالد يابن الوليد ؟** » ..

فوجىء « **خالد** » بالسؤال خاف ان يخطىء فى الاجابة فيغضب والده ويضربه ، أو يلومه خاله وليد الذى يعلن للجميع أن خالد ولد شاطر يفهم كل شىء . أخذ يفكر ويعد على أصابع يديه وقدميه وارتبك فاستعان بمسبحة أبيه وأصابع خاله ، وحرك شفتيه ووسوس بهما محدثا صوتا مدغوما مرعوشا ليؤكد لهم انه يعد النجوم وأنه سيقول لهم الاجابة الصحيحة اذا صبروا عليه .

كان **على الصـيـاد** يحلق ذقن **الشيخ تهامى** ، ثم دلكها بمـاء الشب الحراق ، وكان **خالد** يحب أن يكون موجودا اذا جاء على الصياد ليستمع الى حكاياته عن البلد ونوادر جحا ، لكنه الآن يـكره على الصياد فعدد النجوم مسألة صعبة **وأبله هدى وفتوح أفندى** الناظر نفســـه لا يعرفان حلها ، أحس أنه فى ورطة ، لكنه فوجىء بوالده يقهقه من قلبه ، وخاله **وليـد** يبتسم ، **وعلى الصياد** يفتح فمه الأهتم ويضحك ويسعل ، ثم يقول :

ـ « اذا سألك أحد مثل هذا السؤال البائـخ يابن الوليد ، فما عليك الا أن تفعل ما فعله جحا » ..

أحس خالد بالانقاذ ، فسأل فى لهفة مبالغ فيها :

ـ « وماذا فعل جحا ياعم على ؟ ..»

قال « **على الصياد** » : « صلى على النبى .. » فى مرة .. كان هارون الرشيد فى قعدة من قعـدات الأنس والحظ وفقـد شهيته للرقص والمغنى ، فأشار بيـده المرصعة بخواتم الذهب ، فسكت الطبل والزمر وحبس الناس أنفاسهم ، وعندما فتح فمه وسأل عن جحا أحضروه فأجلسه بجواره وسأله :

ـ « أتعرف ياجحا عـدد نجوم السـماء . لو انـك عرفت فساعطيك كيسا به ألف دينار من الذهب .. »

وقبل أن يجيب جحا ، أو حتى يهرش رأسه ويفـكر ، قال « مسرور السياف » ـ وكان يكره جحا لله فى لله ـ قال ان جحا لن يعرف وانه سيكذب كعادته على مـولانا هارون الرشـيد أطال الله عمره ، ليفوز بكيس الذهب . وضحك هارون من قلبه، لكن جحا اغتاظ من مسرور السـياف وأراد أن يعطيه درسا لا ينساه فنظر اليه هـكذا بطرف عينيه وقال : « بل أنا أعرف عـدد النجوم »

وسأله مسرور : « فكم هى ٠٠ ؟ » قال جحا : عشرين مليون مليون نجمــة » ٠٠

وضحك **هارون الرشيد** ببال رائق، لكن مسرور السياف قال «**وكيف عددتها يا جحا ٠٠ وكيف نصدقك ؟** » فقال جحا :

ـ « بسيطة ٠ عدد النجوم يساوى بالتمام والكمال عدد شعر رأسك وذقنك وشاربك يا مسرور ٠٠ فاذا كنت لا تصدق فليأمر مولانا هارون الرشيد بنزع شعرك شعرة شعرة لتتأكد من كلامى»

وطبعا بهت مسرور السياف ، وخاف عقاب مولاه الذى ضحك وانبسط من ذكاء ومكر جحا ياسى خالد ٠٠

ضحك **خالد** ٠٠ ضبط نفسه يضــحك من قلبه ، فيومها ـ يذكر خالد ـ ضحك وانزاح كربه ، وضحك والده ، وداعب خاله **وليد** ٠٠ **على الصياد** ، وعاتبه على مغــالطاته وقــال له ان هارون الرشيد لم يكن بهذه الصورة المضحكة وأن جحا .. ويتذكر **خالد** أن أباه وخاله دخلا فى نقاش طويل يوجع الدماغ واختلفا لسبب لا يعرفه ٠

وفى ثانية .. نسى **خالد** كل شىء .. فقد انطلقت صرخة امرأة من دار قريبة ، وباغتته وجمدت دماءه ، وظن أنه نام وحلم، لكن الصراخ لم يتوقف ، والمرأة لم تنكتم ، فنعق البوم ونبحت الكلاب وفزعت الفراخ ، واحس ان الليل غول برجل مسلوخة ، وقرأ فى لهوجة « **قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، اله الناس من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور النــاس، من الجنة والناس** » ، وجف ريقه ، رأى عيدان الذرة وأكــوام الحطب والدريس تكبر وتكبر فوق السطوح الواســـعة ، ورأى أشباحا غامضة طويلة كالعفاريت تقفز فوق القش فصاح : « **قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق » وانطلق يجرى ٠٠**

هبط سلم الدار فى قفزات مسرعة ، فصـدم بوالده ... ومخيمر ، اللذين فوجئا بصراخه وصراخ المراة فى الدار القريبة ، حمله «**مخيمر**» ضمه الى صدره ، وربت والده على ظهـره ورأسه ، وقال له **مخيمر** :

ــ « **ولا يهمك يا خالد .. المهم انك ربيت ابن الزانية** » ..

وفى المندرة ، تلقاه « **على الصـياد** » وكان يدخن الجـوزة ، بدعابة وقال : «**من يوم ما طاهـرتك يابن الوليد وأنا أعرف انك رجل مثل أبيك وخالك ..** » وقهقه **على الصياد** ونظر الى الجالسين لكنه أحس ببواخة دعابته . فقد ظل وجه الشيخ تهامى متجهما ، وظلت يده تتحسس رأس ابنه ويديه وقدميه ، وأسرع « **على الصياد** » يجس حرارة الولد ، ثم قال : « جسمه سخن ، سأعطيه حقنة حالا .. »

وقال مخيمر : « سأريها بلطية بنت الكلب ، لن أجعل الدبان الأزرق يعرف لها طريقا .. »

وغمغم **الشيخ تهامى : « ان الانسان لفى خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** » وضم ابنه الى صـدره وقال فى سره « **اللهم احفظه ، فهـو بيضـة الديك ..** » ..

ولف الدنيا صمت ثقيل ، ثم قال أحد الجالسين :

ــ « **ليست بلطية وحدها هى السبب ، لقد فسـدت الذمم وتبجحت البنات وتجرات النساء** » .

وعرف «**خالد**» فى صوت المتحدث ــ **حامد أفندى** ــ فازداد رعبه وخيل اليه أن الأرض قـد زلزلت ، فلم ينتبه لشىء ، وما شعر بوخز الحقنة ، وما سمع « **حامد أفندى** » وهو يضيف : « انه والحمد لله سيرتاح من كل المصايب التى نزلت بالبلد ، فقـد

قبلوا طلبه للانتقال الى قريته ، وأنه جاء الليلة مودعا قبل الرحيل الى الصعيد ٠٠ »

انشغل الرجال لحظة بالخبر وذكروا أفضال « **حامد أفندى** » على عيال البلد ، ونام **خالد** على صدر أبيه ، فحمله ، **مخيمر** ، الى فراشه ٠

وبعد ثانية او دقيقة ، فوجئوا بالصراخ يعود ويشتد ، وقال: « على الصياد » : لا يمكن ان يكون الأمر خناقة بين رجل وامرأة ٠٠»

وقال « مخيمر » : « انه صوت البنت وجيدة الفلاحة ٠ عراكها مع أبيها محمود ابو رمضان لا يتوقف ٠٠ »

وحاولوا ان يشربوا الشاى ويدخنوا الجوزة ، لكن الصراخ ازداد حدة ورعبا ، فهب الشيخ تهامى واقفا ، وقال :

ـ « يحدثنى قلبى ان مصيبة اخرى ستحل بنا الليلة ٠٠ »

وخرج الى الشارع ٠٠ وهرول خلفه الرجال ٠٠

٥ ـ وجيدة ‥ تموت شوقاً :



« أصبح لون وجيدة فى لون
تراب الفيطان الشراقى ‥
لكنها لم تفقد خصوبتها و ‥
فى الليل فوجئت بابيها ‥ »

فى المغربية ، كانت « وجيدة » قد نزعت مراية اللمبة الجاز ، وجلست فى ركن الحجرة بالقرب من فراش أبيها . اخذت تنظر الى عينيها ووجهها وضفيرتيها وتتحسر على شبابها الذى يضيع هدرا بسبب أبيها « محمود أبو رمضان » البقال .

كانت البلد تتحدث منزمن عن جمال وجيدة، جمالها الربانى وكانت هى فرحة راضية ، تنتظر ابن الحلال الذى ياخذها لداره ، لتصبح لها دار وتبعد عن وجه أبيها ((محمود رمضان)) ، وكانت تعرف أن من يتزوجها سينال السعد ، فهى خمرية وحلوة ، خفيفة الدم ، وفى عينيها حبة شقاوة ــ كما يقول زملاء العمل فى الغيطان وهم يعاكسونها ــ وكانت تتبغدد عليهم ، فهم انفار مثلها ، وحالهم مائل ، وهى تريد رجلا قادرا على شبابها ليسترها .

لكن السنين مرت ، وتزوجت البنات من سنها واحدة بعد الأخرى ، وحضرت هى زفافهن وغنت لهن ورقصت وقرصتهن فى أفخاذهن لعلها تصبح عروسا مثلهن ، لكنها ظلت تنتظر حتى صارت أكبر البنات العاملات فى الغيطان ، وأصبح اسمها «وجيدة الفلاحة» لأنها شاخت قبل الأوان وقبل أن يأتيها عدلها ، وأصبح عسيرا عليها ازالة « قشف » الغيط عن جلدها مهما حكته ودعكته بالحجر

والليف والصابون .. واصبح لونها غامقا ، فى لون تراب الغيطان الشرقى ولكنها لم تفقد خصوبتها بعد .. وكانت رغبتها فى الرجال تجتاحها من حين لآخر ، خاصة عنـــدما ترى امراة تستحم فى الترعة أو تسرح شعرها امام عتبة الدار بعـــد أن تدلق « ماء الحموم » فى الطريق ..

وقبل هوجة ١٩٦٧ ، تقدم لها « حامد عطا الله » زميلها فى العمل فى أرض « التفتيش » والذى كان يشيل عنها خط القطن ، وتقتسم معها الأرغفة الناشفة وقطعة الجبن القريش، وطلب يدها من أبيها . رأته «وجيدة» من باب الدار الموارب ، يصعد مصطبة الدكان المبنية من الطين المخلوط بالتبن والقش ، وسمعته يلقى على أبيها تحية المساء ويتمنى له ليلة مريحة وصحة وافرة ، ودق قلبها وأسرعت تعد الشاى وتجهز زجاجة شراب الورد الذى ستوزعه على الجيران .. لكنها سمعت زعيق أبيها وهو يهب فى « حامد عطا الله » ويقول له :

ـ « ليس عندى بنات للزواج .. »

تمنت وجيدة لو انهد الجدار الفاصل بين الدار والدكان لتطبق على عنق أبيها وتلم عليه اهل البلد، وتسأله أمامهم عن سبب رفضه لكل من يتقدم لها ، ولكنها انهارت على الأرض وبكت وتمنت لو أن امها لم تمت ، أو لو أن لها أخوالا وأعماما فى البلد ، وأحست بغربتها ، وتذكرت انها ليست من البلد ، فيه صحيح ، لكن اباها كان مهاجرا من كفر صغير بجوار بلطيم ، سمعت انه سرق أو قتل أو زنا ثم هرب وهو فى عمر حامد عطاالله ، ثم تزوج من أمها عندما رآها مع أهلهـا رعاة الغنم الرحل الذين تركوا البلد عندما انتهى المرعى ولم ترهم هى، وان سمعت من أمها مرة أو مرتين أن اعمامها من اللصوص ، وان اخوالها اســياد الرجال فهم من البدو الرحل بين الصحارى والقرى يلتقطون أرزاقهم وطعام اغنامهم بعرق

الجبين . لكن كل هذا لا يفيدها الآن ، فها هى وحيدة يفعل بهـا أبوها مايريد .

ضربت « وجيدة » دماغها فى الحائط وندبت بختها المائل ، لكنها سمعت « حامد عطا الله » يتوعد أباها :

- « سأتزوجها غصبا عنك » .

فشتمه « **محمود رمضان** » وشتم أجداده الجرابيع الذين عاشوا أبا عن جد عن جد خدما وأنفارا فى أرض التفتيش .. ثم قال :

- أنت لاتقدر على اطعـام نفسـك وامك .. فـكيف تتزوج يا جربوع » ..

أحست « **وجيدة** » بأن ليلتها ستكون أسود من قرن الخروب، لكن اعجابها بحامد عطا الله جعلها تصارح نفسها بأنها تحب الولد الشهم وستقف معه ضد أبيها مهما يكن ، لكن المسألة انتهت بكلمة بائخة من أبيها :

- أنا أعرف صنفك الواطى من الجرابيع .. انت طمعان فى فلوسى .. هه ! .. »

لم تسمع « **وجيدة** » حسا « **لحامد عطا الله** » بعد ذلك أبدا .. انخرس .. انـكتم من الغيظ ، لاتدرى ، لـكنها سـمعته يتمخط ويبصق بكل عزمه .. ثم رأته من الباب الموارب يأخذ فى وشـه ويختفى فى الحارة التالية .. وظلت وحدها ..

بعد يومين ، أسبوعين ، شهرين .. ذهب حامد عطا الله الى الجيش . قالوا انه سلم نفسه ، وقالوا ان محمود رمضان أبلغ عن هروبه من التجنيد ، وقالوا انه اسـتدعى ضمن من تم استدعاؤهم من ((الرديف)) . و .. مات فى سيناء .

احست « وجيدة » عندئذ انها يتيمة فى الدنيا ، وظلت تذهب مع الأنفار الأجرية كل صباح الى الغيطـان وهى عاقدة طرحتهـا السوداء البالية حول عنقها أو فوق جبهتها وشعرها ، وكانت تعمل حتى ينقطم ظهرها ثم تعود آخر النهار مهدودة الحيل لتطبخ العشاء لأبيها أو تدفىء له بعض الماء ليستحم ، وتغسل له ظهـــره كما تعودت منذ ماتت أمها .

وكان « محمود رمضان » كلما أراد الاستحمام ، يدخل حجرة المعاش التى يستعملها مخزنا لبضائع البقالة ولخزين الدار ، ويتعرى من كل ثيابه ويجلس مقرفصا فى الطشت ويسلم جسده المعضم لوجيدة تغســله بقطعــة من ليف النخل · وكانت « وجيدة » قد اعتادت احساسها بالقرف من عضم أبيها وجلده الأصفر الغامق ، وعينيه العكرتين بفعل الأفيون ، لكنها لم تعد تشغل بالها بذلك · اعتادت المسألة كمــا اعتادت رائحة الجبن القــديم والمش والزيت والشطة والفلفل والجاز وسم الفار ·

لكنها فى هذه المغربية ، كانت تحس بأن آخرتها قربت ، لاتدرى كيف ، لكنه احساس ينبع من داخلها ، ولا يقوى عقلها على فهمه أو تفسيره · انها ليلة شئوم من أولها ، زعقت بومة ، نبح كلب مثلما يحدث كل ليلة وكل نهار فى الحارة ، لكنها أحست بالانقباض ، فتركت مراية اللمبة الجاز وأخذت تحفر باصابعها فى أرضــية الحجرة ، ثم أحست برغبة فى النوم ، فنــامت على فراش أبيها ·

* *

فى آخر الليل ، فوجئت بأبيها يوقظها ليتعشيا ، وأعطاها « حفان كراملة » فدهشت ، وهبط قلبها فى قدميها ، هى تعرف أن « محمود رمضان » يفرط فى عرضها هى اذا حكم الأمر ولا يفرط

فى بضاعته ، فهو يسرق نسوان البلد وعيالها ورجالها عينى عينك، يشترى منهم كل أربعة كيزان ذرة بتعريفة أو شوية لب أو سيجارة أو ٠٠ تلقيمة شاى ناشف ٠ وهى تعرف أنه كان يجفف تفل الشاى الذى تغده له ليبيعه ناشفا لأهل البلد ، فماذا ياترى يريد منها فى هذه الليلة السوداء ، ليعطيها « حفان كراملة » مرة واحدة !

ظلت ساهمة فى وجهه القاتم الممصوص ، وعينيه الحمراوين بفعل أفيون « **عبده البورى** » والسهر والحقد الأسود ، وامتزجت الكراملة فى راحتها بالعرق الذى نشع من كل جلدها وبلل حتى قدميها .

رأته يبحلق فى صدرها ، فى فخذيها ، احست ان وخز أشواك الغيط أخف من نظراته الف مرة ، لكنها لامت نفسها وقالت فى سرها ـ انه « أبوها ولا يمكن يابنت ان يقصد ما يظهر فى عينيه من شهوة مفضوحة كشهوة الكلب الذى رأته فى الغيط من يومين يطارد كلبة دون أن يختشى من الأنفار .

سمعته يقول : « الولد عبد العاطى حواس طلبك الليلة منى »

وتبدل حال وجيدة فى ثانية . . دق قلبها بالفرح، احمر وجهها حياء ، ولامت نفسها لأنها لاتسأل فى « أبو حواس » كلما هزر معها بكلامه الحلو ، أو عزف لها على نايه وسط الأنفار ، كانت تزغر له بطرف عينها ولاتجد فيه ما يفوق « حامد عطا الله » الذى عرفت معه أهنأ أيامها فى الغيط وعلى الزراعية قبل أن يخاصمها و ٠

سألها أبوها : « هيم . . ما رأيك ؟! . . »

قالت دون تفكير : « أبو عطا الله ٠٠ الله يرحمه ، راح فى الغربة ٠٠ مات فطيس ٠٠ » .

وصمتت وجيدة ، عندما تنبهت انها على وشك أن تضيف

انها صارت يتيمة فى الدنيا بعد هوجة سيناء التى خطفت **«حامد أبو عطا الله»** . وتمنت لو أن الولد « أبو حواس » كان ناصحا .. واستعان **بالشيخ تهامى أو مخيمر** .. وجعلهما يضغطان على أبيها ليوافق فتخلص من داره ومن عينيه ومن غلبها الأزلى معه .

لكن أباها قال وهو يمدد ساقيه ويسند ظهره الى مسند محشو بالقش و « مزيت » بالعرق :

ـ « لاتشغلى بالك ياوجيدة .. أنا طردته كالكلب .. »

ذعرت وجيدة ، انتفض جسدها كله ، وقف شعرها ، غاص قلبها فى بطن قدميها ، جف حلقها ، تمنت لو قالت له انها البنت الوحيدة التى فاتها الزواج من عشر سنين فى البلد كلها ، وأنها البنت الوحيدة التى عملت فى « التفتيش » يوم كان فى ملك صاحبه الباشا ، وأنها مازالت تعمل فيه منذ ملكه الاصلاح الزراعى ، وانها زهقت من عيشتها ، وانها فاتت الثلاثين من عمرها وانها ستجن اذا ظل يرفض زواجها ، وانها لاتعرف بالضبط ماذا يريد منها ، تعمل وتشقى وتطفح الدم ليل نهار وهو يكنز أجرها مع فلوسه ، وان كل من فى عمرها صار لهن أولاد وبنات و ..

لكن صوتها ظل مكتوما ، فاقسمت فى سرها أن تذهب من صباح ربنا الى الشيخ تهامى وتقع فى عرضه ليخلصها من محمود رمضان لكن أباها قال لها ، وكأنه يحسم المسألة :

ـ « أبو حواس اصله واطى .. ليس من مقامنا ، وهو فلاح على دراعه .. فمن أين تأكلون يا وجيدة .. »

قالت بعد تردد :

ـ « من عرقنا .. »

تأوه « محمود رمضان » ، وأشعل لنفسه « سيجارة لف » ملأت الحجرة والدار كلها بدخان ممزوج برائحة الحشيش ، وقال :

- وتتركينى لمين يا وجيدة ٠٠ ؟

نظرت اليه البنت بشك وحيرة ، فهى تعرف طبعه اذا أراد أن يكسر عنادها يبكى ويشكو هم الدنيا والآخرة ووحدته منذ ماتت امها ، ويقول انه بدونها سـيموت كالكلب الأجرب ولن يجد من يطعمه ويحميه ويحافظ على صحته وأمواله ٠

لكن **وجيدة** ، الليلة ، تركب راسـها ، ولا تريد أن ينضحك عليها ، قالت دون أن يهمها شيء :

- « تزوج ٠٠ »

فزع « **محمود رمضان** » ٠ انه ماتعود هذه اللهجة من ابنته ، قال غاضبا :

- « اتزوج على آخر الزمن ؟ ٠٠ كل النسـوان طامعـة فى فلوسى وداري وأنا احفظها لك يا وجيدة ٠٠ »

أسندت ظهرها للحائط ، وتركت « الكراملة » بجوارها على القش ومسحت راحتها فى ذيل قميصـها الدمور الباهت المثقوب فتعرت فخذها ، واحست بوخـز عينيه فأرخت ذيلها بسرعة وارتباك وقالت :

- « أنا تعبت ! ٠٠ »

وانكتمت تبكى بلا صوت ٠

انتقل «محمود أبو رمضان» الى جوارها، طبطب على ظهرها، أخذ راسها على صدره ، مسح على شعرها الأسود الطويل ، وحل

المنديل المشغول بالترتر على راسها، تحسس عنقها ، انهمرت دموعها . احست انها يتيمة وتجرات على ابيها وهمت ان تقول له:

ـ « نفسى أتزوج مثل كل البنات ٠٠ »

لكنها فوجئت به يتمدد بجوارها ، ويجرها فى حضنه ويلتصق بها مثلما حاول معها ناظر « التفتيش » ذات فجرية وهى تنقل « التبن » مع البنات من الجرن فصرخت ٠

❋ ❋

دخل **الشيخ تهامى،** ومعه دخل «**مخيمر**» و «**على الصياد**» وبعض الجيران والجارات ، ورأوا « **وجيدة** » كالغريقة ٠ احتوتها احدى النسوان فى حضنها وهى تصرخ : « **حوش يارب حوش**»

انكمش **محمود رمضان** كالفأر فى ركن الحجرة ، تراقصت اللمبة الجاز فبدا قميئا شديد الضآلة ، وسحب «**مخيمر**» خيزرانته الطرية وانهال ضربا على راسه وظهره وبطنه وهو يلعنه ويلعن الذين رموا بذرته النجسة فى بطن أمه ٠٠

قال على الصياد :

ـ « **لابد من سجنه فى النقطة ٠٠ الضابط وجدى كفيل بتاديبه** » ٠

قالت احدى النسوان :

ـ « **يستحق الحرق فى جرن البلد ٠٠** »

وقالت أخرى انه كان مخاويا جنية تحت الأرض فماذا جرى له ٠ خذه يا مخيمر وبعه فى سوق الحمير ٠٠

شهقت «**وجيدة**» فجاة وانخرست، انهارت تنتفض كالفرخة

المذبوحة ، وبحثت امراة عن بصلة لتدعك انفهـا وفمها كما أمر « على الصياد » .

قال الشيخ تهامى :

ــ « لامكان لك بيننا . عليك الآن ان ترحل عن البلد ولاتعود اليها أبداً .. »

كان «الشيخ تهامى» ــ فى سره ــ يدرك أن الله غفور رحيم، لكنه كان يعرف أن « عمر بن الخطاب » ما كان ليتساهل فى حق من حقوق الله ، وان «محمود رمضان» قد حاول اكبر الكبائر وانه يجب ان يرجم بالحجارة حتى الموت . لكن «البلد» كانت قد نسيت اقامة حد الله على الزنا واللصوص واشباههم من زمن طويل ، كما تناسى كثيرون ان هناك قوانين وضعية لحمايتهم .. ربما لخوفهم الأزلى من « النقطة » .. فأراد أن يضع حدا للمصيبة كلها .. وكان قراره بالطرد ..

* *

فى الظلام ، شاهد بعض الساهرين على مقهى « عبد الهادى » .. محمود رمضان يسير بجوار الجدران ، على ظهره صرة كبيرة بها ما استطاع جمعه من حاجياته ، ومالبث أن ابتلعـه الليـل المحيط بالبلد كخيمة سوداء واسعة .

* *

فى الصباح ، فوجىء « البلد » « بوجيدة » ترتدى فستان الزفاف الذى أعدته لفرحها من عشر سنين ، وقد ملأت قماشه الستان بالترتر الأصفر ، وكانت قد « زوقت » نفسها فملأت يديها وقدميها بالحناء ، ودهنت شـفتيها وخديهـا بورقة معسـل حمراء بللتها من ريقها ، وجلست على المصطبة امام دكانة ابيها المغلقة .

وراحت تضحك وتتاوه وتثير المارة الذين قلبوا أيديهم ووجوههم وقالوا :

ــ « وجيدة الفلاحة أصابها لطف فى عقلها وانهبلت » .

❋ ❋

فى عز الظهر ، كان « **عبده البورى**» يمر فى الحارة وينادى:

ــ « **خيش قديم للبيع** » .. عندما أقبلت عليـه « **وجيدة** » وسحبته من ذراعه رغما عنه الى داخل الدار ، وفى حجرة أبيها ، وفوق المرتبة المحشوة بالقش التى كان ينام عليها ابوها ، دفعت «**عبده البورى**» وارتمت فوقه ، وعندئذ سألها «البورى» بخوف:

ــ « **أجننت يا وجيدة ؟ ..** »

❋ ❋

بعد يومين ، بعد أسـبوع ، كان مخيمر فوق حمـاره ، فى طريقه الى سوق المركز ، وفى جانب من شط المصرف ، وجد امرأة منكفئة على وجههـا فى التراب ، والدماء تنزف من جرح كبير فى ظهرها . ولم يكن فى حاجة الى جهد ليعرف أن القتيل هى .. « وجيدة الفـلاحة » .

❋ ❋

فى البلد ، قالوا ان أباها «**محمود رمضان**» قد عاد الى مهنته القديمة ، قاطع طريق ولصا وزانيا ، ورتب قتـل « وجيدة » ، وقالوا ان عقلها قد عاد اليها فجأة ــ وبدون مناسبة ــ رفضت أن تنام مع أحد عساكر النقطة فقتلها عنـدما هددته بفضيحة ، وقالوا .. وقالوا ..

في مكتب الضـــابط وجدى ، أغلق محضر التحقيق بالجمــلة المعروفة : « والفاعل مجهول ٠٠ ! »

* *

وفى المغربية ، اهتز معسـكر المهـاجرين كله بصرخة فزع اطلقتها « بلطية » ، وهرولت النسوة والرجال الى حجرتها ليعرفوا ما حدث ٠

٦ ـ أم نور ٠٠ فى مأزق :



« كالكلاب المسعورة ينهشون جسدى كل ليلة٠٠ أنا أعرفهم واحداواحدا ٠٠وأعرف ماتفعله الفاجرات ٠٠ لو مات «نور» سأفضح البلد فضيحة لاتخطر على بال ٠٠»

امتلات حجـرة ((بلطية)) ببعض جاراتها من المهــاجرات وباطفالهن ، وحاولت « أم بسيمة » أن تلوم « بلطية » لكنها ترددت وصمتت ، لأنها تعرف أن لسانها طويل ٠ وانشغلت « أبله هدى » بملء جرح ((نور)) ببعض البن ، وقطعت ((بلطية)) قطعــة من قميصها الداخلى ، وربطت جرح ابنها وضمته الى صدرها وأحست بانها غريبة ويتيمة فى « البلد » ، فطبطبت على ظهر « نور » ومسحت شعره ، وفرت دموعها ، وساد الصمت ٠

٠٠ أخيرا قالت هدى :

ـ ((ما كان يجب ان تفقدى عقلك يا بلطية ٠٠)) ٠

فزعت الجارات وتوقعن أن تتهور بلطية وتهين « أبله هدى » ٠ فمنذ سافر زوجها وبلطية لا تطيق كلمة من أحــــد ٠ لكنها ٠٠ ولدهشتهن البالغة ، فوجئن بها تقول بضعف شديد :

ـ « معك حق يا هدى ٠٠ » ٠

كانت « بلطية » هى الوحيدة التى لا تهتم بألقاب الناس ٠٠ انها ترى الجميع من حــــولها على حقيقتهم بدون زواق ٠ وهى لا تريد أن تشغل نفسها بهن طالما تركنها فى حالها ، لكن « هدى » لها مكانة خاصة عند « **بلطية** » .. انها تساعد ابنها « نور » على

استذكار دروسه ، وكانت تعرض عليها — هي وخطيبها يوسف — ودون أن يدرى أحد — مساعدتها المالية ، لكن «بلطية» كانت ترفض لأنها تعرف أن « هدى » تعول أسرتها التي تأكل الزلط ، فوالدها فقد ساقيه في الحرب ويحتاج لكل مليم ، واخوتها كلهم صغار ، وامها ماتت في الغارات ، كذلك **بلطية** تعرف أن «**يوسف**» كان يبحث عن عمل ليدبر مصاريفه الجامعية وليساعد امه واخوته و « بلطية » لهذا كله تحس أن « **هدى** » قريبة منها .

قالت هدى :

— « **الشيخ تهامى فعل الكثير من أجلنا** .. » .

وتذكرت النسوة ، بل وتذكر من يعى من الأطفال . طعم الوجبات الدسمة التى حملها اليهم يوم وصلوا الى « البلد » النساء والبنات والرجال من الفلاحين ، وعرف المهاجرون فيما بعد أنه لولا « الشيخ تهامى » لما حافظ البلد على اطعامهم أسبوعا .. شهراولماتوا جوعا فى المهجر ، فقد كان كل شىء يتم بارتباك شديد .

وجدوا أنفسهم يحزمون أمتعتهم فى بورسعيد .. لم يتركوا شيئا له قيمة ، فهم يعرفون من تجربتهم فى « **هجرة ٥٦** » أن كل شىء يصلح لأن يباع بالنقد أو المبادلة بالأرز والدقيق ، وفى منتصف احدى الليالى وجدوا أنفسهم هنا .. بين الفلاحين . لا يعرفون ان كانوا هم الذين اختاروها وأصروا على اختيارهم ، أم أن حظهم هو الذى جعل المسئولين عن التهجير يوجهون العربات بهم الى هذا البلد . ربما حدث هذا واختاروها ، وربما اختيرت لهم ، لا شىء واضح فى ذهن « **بلطية** » الآن ، وان كان النسوان حولها يذكرن انهن طلبن المجىء الى هنا ، فمازالت صداقتهن بالفلاحات منذ « حرب ٥٦ » عالقة بالأذهان ، وكن يقلن مع أزواجهن :

ـ « البلد الذى نعرفه خير من غيره ٠٠ » ٠

انهم ٠٠ ومنذ وصلوا الى البلد ، لا يحسون بأنهم غرباء ٠٠ على الأصح ، لا يحسون بذلك احساسا قويا ، الغربة راسخة فى وجدانهم ، يشعرون بها كلما ساروا فى شوارع البلد ، كلما قابلوا الفلاحين ٠ كلما باعوا واشتروا مع أهلها ، لكنــه احساس يختفى تحت جلدهم ، خلف ابتساماتهم ، فى ثنـــايا مودتهم وترحيبهم الدائم بكل ما يحدث لهم من الفــلاحين ، وكانت المجــاملات المتبادلة ٠٠ والمبالغ فيها ، تخفف كثيرا من حرجهم وخوفهم مما قد يأتى به الزمن فيعكر صفو العلاقات مع أهل البلد ٠

لكن ٠٠ هاهى « **بلطية** » ٠٠ وبقلة عقل ، تهدم كل ما حرص المهاجرون على بنائه بينهم وبين الفلاحين من علاقات المودة والمحبة ٠ فأحست النسوة وكأن البطاطين القديمة والجديدة المعلقة على حبال لتقسم كل حجرة الى حجرتين ، وتستــتر أسرتين من المهاجرين ، أحست وكأنها طارت مع ريح ، مع عاصفة مباغتة ، مثلما أخــذوا « يوسف » من بينهم ذات ليلة ٠٠

ليلتها، اختلط الأولاد، وتجمعت النسوة ، وتلاصقت البنات وتحرش الرجال « بزوار الليل » ، لكن الخوف من المسدسات غلبهم على أمرهم ، وها هو كل الخوف يتجمع من جديد ويتحول الى لوم شـــديد لبلطية ٠ فكرت بعض المهاجرات فى طرد « بلطية » من المعسكر عندما رأين ما حدث على يديها لزوجة الشيخ تهامى ، وقلن أن طردها يكون ترضية معقولة لأهل البلد ، لكن « هدى » لامتهن بغضب ، وقالت انها ستذهب الى بلطية وســتحاول البحث عن حل ، قبل أن يأتى الرجال ويحدث مالا تحمد عاقبته بين المهاجرين وأهل البلد ٠

لحظتها أحست « **هدى** » كما أحست كل المهـــاجرات فى

المعسكر ، أن « يوسف » كان يحمـل عنهم الكثير من المشاكل ، ولحظتها فرت دموع « هدى » وأحست بشوق لا يقاوم ليوسف .. لعينيه ، لصوته .. لذراعيه .. لحنانه .. لرجولته .. لعقله ، لكنها تماسكت وقالت فى سرها :

ـ « سيرضيه أن أحاول عمل ما كان يعمله لنا .. » .

*** ***

قالت « **لبلطية** » :

ـ « تعرفين مقام الشيخ تهامى فى البلد .. الجميع يعرفون له قدره .. » .

قالت بلطية :

ـ « أعرف .. » .

قالت هدى :

ـ « ولم اذن فعلت ما فعلت بزوجته يا بلطيـــة .. ان قلة العقل ستضربنا كلنا .. » .

فزعت « **بلطية** » .. انها لم تفكر فى هذا ، عندما حـدث ما حدث ، كل ما كان يشغلها هو ابنها « نور » .. ألا يجوع .. ألا يهان فى الغربة ..

لقد جرح ابنها ولم يفعل أحد شيئا لها ، كانت تغسل ثيابه وقميص نومها الأسود ، وكان فى ذهنها أن تشترى ثيابا جـديدة لنور وحذاء بدلا من « صندله » الذى تمزق عن آخره ، ولكنهـــا وجدته فجأة أمامها ودماؤه تغرق وجهه وشعره وثيابه فصرخت .. أو بكت .. أو لطمت خديها أو لعنت الدنيا ، لا تذكر ، فقد خرجت من وعيها ، وكل ما سيطر على عقلها وقاد قدميها الى دار الشـــيخ

تهامى ، هو أن تضرب « خالد » .. تضرب أمه .. أباه .. حتى تهدأ نفسها وتمحو من دماغها ما لحق بها وبابنها من مهانة .

قالت هدى :

ـ « **أهنت أم خالد ، وهى سيدة فاضلة ولها أياديها البيضاء علينا** » .

وتذكر النسوة ، والأطفال ، « صينية » العشاء الدسم التى ترسلها «أم خالد» للمعسكر فى كل مناسبة ، وتذكرت «**بلطية**» وتذكر « **الأولاد** » دكر البط وكوم اللحم الذى حمله اليهم « **الشيخ تهامى** » ليلة عاشوراء ، كان الشيخ يطمئن بنفسه أن الصغار يأكلون حتى تمتلىء بطونهم ، وكان يقول للنساء والرجال الذين أخجلهم بكرمه وأخجلوه بامتنانهم له :

ـ « **أنتم منا .. كلنا أهل يا جماعة ..** » .

وعندما كانت كلماته تثير الشجون ، وتبكى احدى المهاجرات ، كان يقول لهم :

ـ « **ان البلد لم تفعل الواجب ، ولا أعرف ماذا جرى للناس زمان هاجر النبى وأصحابه ومن اتبعوا هديه الى المدينة ، فتلقاهم اهل المدينة وفتحوا امامهم كل الأبواب واقتسموا معهم كل الطعام والثياب والمال . لقد كان الأنصار يتخاصمون فيما بينهم لأن كلا منهم يريد أن ينال شرف استضافة عدد أكثر من المهاجرين ..** » .

وكان الرجال يقولون :

ـ « **ظروفنا واحدة ياشيخنا .. اهل البلد ونحن لا نجد ما يكفى هذه الأيام ..** » .

وكان الشيخ تهامى يقول :

– « بل لدينا ما يكفى ، انما هو الطمع وايثار الذات وغياب الحب عن نفوسنا الخربة . ان الأنصار فعلوا مالم يفعله بشر من قبل ومن بعد . كان زوج الاثنتين ينزل عن احدى زوجتيه للمهاجر .. على سنة الله ورسوله .. وان هذه لحكمة بليغة غابت عنـا نحن الطامعين فى الدنيا » ..

كان المهاجرون – لا يعرفون كيف – يتذكرون « **بلطيـة** » وأفعالها البطالة ، ويتمنون لو أنها تزوجت من أحدهم أو من أحد الفلاحين ليسترها ، لكنها كانت تصرخ فيمن ينصحها بذلك :

– « وزوجى ياولاد الكلب . انه سيعود يا غجر أو تظنـون أنه مات ، أو راح وراء الشمس مثل « الأولاد » ؟ » .

لكنها الآن تحس بخجل غريب عليها ، خجل جارف ساخن مثل الذى دهمها يوم نام معها زوجها ليلة الدخلة وأصر على أن تشاركه فى زجاجة « الكونياك » التى جاء بها من رحلة بيع وشراء قام بها فى زورقه مع البمبوطية الى البواخر فى مرسى المينـاء ، فلما تمنعت ليلتها قال لها انه يحبها قد عينيه ، وأنه سيأتيها كل ليلة بزجاجة من البواخر أو من « خمارة عنتر » ، فلما قالت انها لن تشرب .. نهرها وقال انه تهاون اليوم وجعل الخواجة يغلبه فى « البيعة » من أجل عينيها الكحيلتين ، فشربت ونسيت خجلها ، وامتلأ جسدها كله بالنشوة والسعادة وأمتعت زوجها .

❋ ❋

أغمضت « **بلطية** » عينيها ، ومع ذلك ظل جسد « **أم خالد** » عاريا أمامها فصارحت نفسها ، أنها أحست بالشـــماتة والفرح يهزانها عندما تعرت « أم خالد » أمام الناس فى الشارع .. وأنها

بذلك لم تعد وحدها التى يحكون عن عريها مع الرجـــال ، وأن « أم خالد » ليست أفضل منها ٠٠ وتذكرت ما قاله صديق ليلها من أن الشيخ تهامى لعنها فى خطبة الجمعة ، فأحسست بالتشفى ٠

لكن هاهى « **هدى** » والنسوان من حولها يذكرنهـــا بحجم الكارثة الحقيقية التى فعلتها ، وهى تعـــرف أن أهل البلد قد يفرطون فى أى شىء الا كرامتهم ٠

فقالت :

ـ « **لم أكن أقصد ٠٠ ثوبها هو الذى تمزق فى يدى ٠٠** »

قاطعتها هدى :

ـ « **كان عليك ألا تهينى السيدة الطيبة** » ٠

قالت :

ـ « **ومن قال لها ترتدى جلبابها على اللحم ٠ انها ليســـت فقيرة مثلنا ٠٠ ؟** »

قالت هدى :

ـ « **كانت فى دارها** » ٠٠

قالت بلطية :

ـ « **كان لى دار أحسن من دارها ٠ لكنه الزمن الأعمى** » ٠٠

٠٠ تشجعت « أم بسيمة » قليلا وغمغمت :

ـ « **لا يعلم الا الله متى نعود** » ٠

فأخرستها بلطية :

ـ « **بعت بسيمة لصاحب الأرض والحمير ٠٠ فلماذا تندبين يا بنت الـ ٠٠٠٠** »

أسرعت هدى تقول .

ـ **سنعود الى دورنا ..»**

فقاطعتها بلطية ساخرة :

ـ « **أنت تحلمين يا هـــدى . أفيقى يا أخت .. ولا تنسى نفسك ..** »

قالت هدى :

ـ « **أنا لا أحلم . سنرجع الى بيوتنا وسنصلح كل شئ ..** »

.. وكادت هدى تضيف : « **وأتزوج يوسف الذى منحنى حبا لا أنسى حلاوته منذ كنا نخرج معا الى الشـاطئ ونبث البحر أسرار عشقنا ..** »

وكادت تقول أيضا : انها قلقة لأن يوسف طالت غيبته ، ولا يعرف أحد متى يعود ، وأنها لذلك تشعر بالحزن يحاصرها ، وأنها مهما فعلت فلن تستطيع أن تفعل ما كان يوسف قادرا على فعله لو أنه كان معهم الآن ..

سألتها أم بسيمة فجأة :

ـ « **أما من أخبار عن يوسف ؟! ..**

وأضافت :

ـ **قرأت له الفاتحة عند مقام** « **سيدى راضى** » .

لم تعلق **هدى** .. انشغلت بالحنين ومحاولة الاقتناع بفضيلة الصبر .. لكن صوت « **بلطية** » أيقظ فزعها اذ قالت فى لهفة :

ـ « نور سيموت . انظرى .. انه ساخن .. » .

لطمت **بلطية** وجهها ، أحست بالضياع ، قالت لها هـــدى مواسية :

– « **لا تتوهمي ٠٠ انه بخير ٠٠ سأعد له الكمدات حالا ٠٠** »

وقامت الى حجرتها ، بحثت عن خرقة من القماش ، فتشت بقايا ثياب أبيها واخوتها الصغار فلم تجد سوى ثيـــاب لا غنى عنهـــا ، فامتدت يداها الى قميص نومهـــا ، حملته مع طبق قديم لا يستعمل كثيرا لأنه « طبق الشوربة » وملأته ماء وأسرعت الى بلطية فوجدت نحيبها قد تزايد ٠ وضعت هدى قميصها المبتل على جبهة نور ، وقالت بغضب :

– « **انت السبب ٠٠ تركت جرحه ينزف كثيرا ٠٠** »

ازداد شحوب بلطية واضطرابها ، وتذكرت الدماء التي نزفها ابنها « نور » ، وقالت :

– **« اجن ٠٠ لو مات » .**

ونظرت الى وجه ابنها ٠٠ كان أصفر ممصوصا ، مثلما كان يوم بدأت الغارات تهدم البيوت في شارعهم ، يومها خاف الولد نور ، بكى وأخفى وجهه في صدرها وظل ينتفض حتى عاد أبوه فأحست هي وابنها ببعض الأمن ٠ كان زوجها يحمل عنها الكثير من الخوف ٠ لكنها الآن وحيدة ، وجدت نفسها تلعن زوجها :

– « **لو أنه رجل ٠٠ لما تركنا يتامى ٠٠ ابن الكلب** » ٠

٠٠ انشغلت هدى بكمدات الماء البـــارد ، علها تخفف من حدة الحمى التي أحست بها تلهب جسد نور وانصرفت أم بسيمة في صمت ، وتعلقت عينا بلطية بشفتي ابنها نور ومتابعة أنفاسه اللاهثة ٠٠ وازدادت اقتناعا بما فعلته ، بل انها لامت نفسها لأنها لم تشرب من دم « أم خالد » :

- **تقولين اننى أحرجت المعسكر كله ؟ ‧‧ ماذا سيحدث ؟ ‧‧ سيهدمه الفلاحون ؟ يهدموه .** سيمنع الشيخ تهامى البط واللحم عن المهاجرين ؟ ‧‧ ليمنع ‧‧ لتموتوا جميعا اذا مات نور ‧‧ انه لم يفعل شيئا للدنيا لتفعل به كل هذا ‧‧ وأهل البلد ‧‧ كالكلاب المسعورة ، ينهشون عرضى كل ليلة وبعد ذلك يدعون التقوى ‧‧ أنا أعرفهم واحدا واحدا ، وأعرف ما تفعله الفاجرات هنا وفى الغيطان ‧ لو مات نور فسأفضح البلد فضيحة لا تخطر على بال ‧‧

أرادت بلطية أن تقول الكثير ، لكن فزعها على نور جمد لسانها وأرعش كل مفاصلها ، فلم تستطع أن تتحرك ، لم تستطع حتى أن تمد يدها لتأخذ كوب عصير الليمون الذى جاءت به أم بسيمة لنور ، ظلت جالسة فى ذعرها ، لم تعد تبكى ، أحست بأن حقدا لم تعهده فى نفسها قد ملأ قلبها ، وأن كراهيتها للجميع لا حدود لها ‧

وعندما رأت أم بسيمة تحمل موقدا به بعض البخور لترقى ((**نور**)) تشاجرت معها ولعنتها وطردتها ، ثم عادت تنظر الى ((**هدى**)) بضيق . فقد داخلها شعور قوى بأنها تضحك عليها ، وأنها تعرف أن « نور » سيموت وتكذب عليها ، فنترت يدها بقسوة أذهلت **هدى** فسألتها :

- « **بلطية ‧‧ ماذا دهاك يا بنت ؟! ‧‧** »

فصرخت فيها :

- « **لا أريد أن أراكم ‧‧ كلكم تكرهوننى ‧‧** »

واختطفت ابنها نور من بين ذراعى هدى ، حملته على كتفها وهرولت الى الطريق ‧ ظلت تجرى دون أن تدرى الى أين ‧ مرت

بالجامع ، أرادت للحظة أن تدخله وتشتم الشيخ تهامى ، لكنهـا ترددت عند الباب ، ثم انهارت وجلست على الســـلمة الأولى ، وألصقت قدميها بالأرض وأخذت «**نور**» فى حضنها ، وأحست أنها فى دوامة لا قرار لها ٠

بعد لحظة .. أو ساعة .. أو ساعات .. لا تدرى ، وجدت نفسها أمام الشيخ تهـامى بنفسه . كان ينحنى ، ويسألها فى اشفاق عما أجلسها على سلم الجـامع ٠ فزعت أول الأمر ، خافت منه ٠٠ لكن شيئا ما فى صوته ٠٠ فى عينيه ٠٠ جعلها تطمئن ٠٠ فقالت :

ـ « نور يموت يا شيخ تهامى ٠٠ »

تحسس « **الشيخ تهامى** » جبهـــة نور ، ويديه ، وقدميه ، وجده ساخنا ٠٠ أكثر سخونة من ابنه « **خالد** » ٠٠ فملأه الأسى ، وهمس فى سره : « **اللهم أعنى على نفسى ٠٠** »

وقال لهـا :

ـ « اطمئنى يا ابنتى ٠ سيكون بخير بعون الله ٠٠ »

أحست « بلطية » فجأة بيتمها وشقائها ، عندما قال لهـا : « يا ابنتى » ٠٠ انها منذ كانت فى سن ابنها « نور » لم تجد أباها فى البيت ، مات وتركها مع أمها ، وماتت أمها مع بقية الأهل فى عربة النقل بالقنابل يوم الرحيل ٠ (يا ابنتى) ٠٠ ان صـوته ملىء بالحنان الذى يغمر قلبها بالسكينة ٠ انهارت على ركبتيها ، أمسكت ابنها بيد ، وبالأخرى خطفت يد الشيخ تهامى وقبلتها ٠٠ بللتها بالدموع قبل أن يفيق من المفاجأة ويسحب يده وهو يهتف :

ـ « أستغفر الله لى ولك يا ست أم نور ٠٠ »

لا تدرى « بلطية » كيف سارت مع الشـــيخ تهامى الى باب المعسكر ، ولا تدرى كيف صدقته عندما قال لهـــا ان « نور »

سيكون بخير ، وأنه سيذهب بنفسه ويأتى بعلى الصـــياد ليعطى نور حقنة بنسلين . انها تصدق الشيخ تهامى ، وتحس فى الوقت نفسه بخجل قاتل منه ومن زوجته . عاهدت نفسها أن تذهب فى الصباح الى دار الشيخ تهامى لتقبل رأس أم خالد وتطلب منها السـماح .. ثم تصـالح الولدين نور وخـالد وتجعلهمـا يحبـان بعضهما .

* *

قبل أن يذهب الشيخ **تهامى** الى على **الصياد** ، عاد الى الجامع .. وصلى الفجر ، لم يتوضأ ـ كما فكر عندما لمسته بلطية ـ كان بداخله ما يشبه اليقين أن لمسة بلطية ليـده لا تنقض الوضوء .. وأدرك أنها تستطيع أن تنقذ روحها من الضلال ، وجسدها من الدنس ، لو أنها وجدت من يعينها على نفسها ، وأخذ يتـلو : **« ضرب الله مثـلا للذين آمنو ، امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القـوم الظالمين .. »**

* *

سمعت « بلطية » طرقا خافتا على باب حجرتها ، فقالت فى نفسها ، ان الشيخ تهامى قد جاء بالدواء لنور ، وتأكدت من أنه قد نسى ما فعلته بزوجته و .. لكنها عندما فتحت الباب وجـدت « مخيمر » منتصبا امامها .. رفيعا ، نحيلا ، طويلا . أخذتهـا المفاجاة ، وحاولت أن تستر جسـدها الذى لا يغطيه غير قميص نومها الأسود المشغول بالدانتيل ، لكن « مخيمر » دخل وأغلق الباب بسرعة واقترب منها وهو يحدق فيها بحقد ، فتحت فمهـا لتصرخ وقد أحست بالخطر يدهمها ، لكن يد مخيمر أغلقت فمها ، فانهارت بلطية على مرتبتها القـديمة فوق بلاط الأرض ، ووجد مخيمر نفسه ، ملتصقا بها .. بلحمها ، فنسى كل حقده وتذكر ما كان بينهما .

٧ ـ الفضيحة ٠٠ والجلد :



نقل « مخيمر » الحكاية كلها الى نقطة البوليس . لم يكن هو يريد ذلك ، ولم يكن « الشيخ تهامى » يريد ، ولم تـــكن بلطية تريد ،ولكن ها هو بقلة عقله ، وبسبب رغبة جارفة اجتاحته دون أن يدرى وجعلته يشتهى « بلطية » ، يقف مفضوحا أمام الضابط وجدى رئيس نقطة البوليس وهو لا يقدر على رفع عينيه من فوق طرف ((بلفته)) حائلة اللون .

كان يعرف باحساسه فقط ـ رغم اضـــــطرابه ـ أن خاله الشيخ تهامى ، قد صار فى « نصف هدومه » ، وأنه لا يعرف كيف يبرر المسألة كلها للضابط وجدى ، وتمنى « مخيمر » لو أن الارض انشقت وابتلعته .. لو أنه انسخط حمارا ، لو أن حريقا أكل البلد وكل من فيها ، فهو لم يعد يعرف باى عين سيواجه الناس ـ اذا قدر على مواجهة زوجتيه أم عديله ، وبسيمة :

سأل الضابط .. بلطية :

ـ « يقول العسكرى أنه ضبط مخيمر ينط من شباك حجرتك بعد صلاة الفجر .. »

قاطعته بلطية باستنكار :

ـ « كذاب فى أصل وشه .. »

واستعاد **الشيخ تهامى** بعض صبره ، واستعاذ بالله ثلاث مرات ٠٠ وأكبر **بلطية** فى سره ٠

وأحس « **مخيمر** » بأنه يصغر ويصغر ، ويصبح لا قيمة له ، ولعن نفسه ولعن اليوم الأغبر الذى رأى فيه **بلطية** ٠

وأعاد الضابط **وجدى** سؤال العسكرى :

ـ هل رأيت « مخيمر » ينط من شباك بلطية ٠٠؟ ٠

فشد العسكرى هامته العجفاء ، وقال بسرعة :

ـ رأيته بعينى ٠٠ وأمسكته بيدى ٠٠ وكان ينتفض كالفأر ٠٠

٠٠ وزام مخيمر، أحس بالهوان، وقال فى نفسه انه يستحق أن يكون مسخرة وملطشة لأنه حمار وفضح نفسه ، وحمد الله أن « الأولاد » ليسوا فى البلد ، والا لصار « عيلا » فى نظرهم ٠

قال الشيخ تهامى :

ـ « ان بعض الظن اثم ٠٠ ! »

وقالت **بلطية : « مخيمر لا يعرف طريق بيتى ٠٠»** ـ كانت تسمى نصف الحجرة التى تنام فيها مع ابنها نور ٠٠ بيتا ، وأراد « **مخيمر** » أن ينظر اليها ، أن يرى عينيها ذاتى الكحل الربانى وأراد أن يقول لها : « **ظفرك بألف مثلى يا بلطية ٠٠** » لكنه لم يقدر على رفع عينيه وتمنى لو أن خاله ضربه بحذائه ، بعصاته ، أو لو أن الضابط وجدى سجنه فى « التخشيبة » وجعله يكنس اسطبل الخيل ، كما كان ناظر « التفتيش » يفعل مع والده « سليمان » ـ الله يرحمه ـ كان مخيمر هو الذى أراد تأديب الناظر لأنه أهان والده ، لكنه الآن يحس فى قرارة نفسه أنه هو الذى

يجب أن يتأدب ، يسجن ويضرب ، لكن شيئا من هذا لم يتحقق ، فها هو العسكرى يحلف يمينا بالله أنه رأى مخيمر ينط من شباك بلطية ، وها هى بلطية تصيح : « قطع لسانك يا مفترى .. »

تبادل الضابط وجدى ، والشيخ تهامى ، النظرات ، واتفقا دون كلام على أن الله قد أمر بالستر ، وأن الشيخ تهامى سيؤدب مخيمر بنفسه .

بعد ثانية .. دقيقة ، وجد مخيمر نفسه يسير أمام خاله حتى باب نقطة البوليس ، ثم تأخر حتى سار خلفه فى الشارع ، ورأى بطرف عينيه « **بلطية** » تتجه الى معسكر المهاجرين **وقال فى سره : انها بنت أصول .**

* *

فى حجرة التبن والعلف ، بدار الشيخ تهامى ، ربط مخيمر نفسه بحبل تيل الى الفلقة ، ارتمى على الأرض ورفع قدميه فى صمت فانهال عليهما خاله ضربا دون رحمة .

كان الغضب المشتعل فى قلبه وعقله ، يدفع الدم ساخنا الى عروق رقبته وذراعيه ، فلهث ، وأحس بالاختناق ، وازدادت ضرباته قسوة حتى تورمت قدما مخيمر وسال الدم من بعض أصابعه .. كان « **الشيخ تهامى** هو الذى ربى « **مخيمر** » منذ مات أبواه وهو صبى ، وكان مخيمر يقول للشيخ تهامى : « **يا أبى** » ، ثم كبر وعرف أنه « **خاله** » ، لكنه مازال يحس بأنه طفل صغير أمام خاله ، يخاف منه ويحترمه ويخاف عليه أيضا . فهو يعطف عليه ، يدلله ، حتى عندما أراد أن يتزوج « **بسيمة** » ، وغضبت زوجته « **أم عديله** » وشكته لخاله ، طيب خاطرها وجعلها تعود لبيتها وبناتها ، وحاول أن يثنى « مخيمر » عن عزمه ، لكنه لما عرف

انه ركب رأسه ، وانه يريد « **بسيمة** » وافقه حتى لا ينحرف ويرتكب معصية ، واوصاه بأن يعدل بين زوجتيه .

كان الشيخ تهامى يحس أن مخيمر هو ابنه البكر ، وأنه رجل البيت فى غيابه ، وكان كلما تذكر ما أصابه فى سجن القلعة سنة ١٩٦٥ ، وأنه عاد ناقصا خصية ، وفاقدا القدرة على انجاب أخ أو اخت لخالد ، كان يعزى نفسه بانه يكفيه مخيمر وخالد ووليد .

.. وكان فى أحيان كثيرة .. يفضله على نفسه عند اقتسام محصول الأرض من الحبوب والتبن والقطن ، فقد كانت أرض الشيخ تهامى وأرض مخيمر متجاورتين ، فازال الجسر الفاصل بينهما من زمن ، وقال :

ـ « المصلحة واحدة .. ونحن أهل ياولد .. »

لكن هاهو « **مخيمر** » ينساق وراء رغبة جارفة ، ولا يرعى لخاله خاطرا أو يعمل له حسابا ويشفق عليه من الفضيحة .

و .. تعبت يدا « **الشيخ تهامى** » من الضرب ، فتوقف ، ومسح العرق الذى نشع عند حافة عمامته فوق جبهته ، وانحط على الأرض وغمغم : « **اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا ..** » ثم قال لمخيمر :

ـ « نسيت نفسك .. ونسيت الله .. يا كافر .. »

قال **مخيمر** ، وهو يبذل جهدا مضاعفا حتى لا يتأوه :

ـ « كنت أريد تأديبها .. »

صرخ فيه الشيخ :

ـ « استح ياولد وكف عن الكذب والملاوعة .. »

قال **مخيمر :**

ـ الشيطان شاطر يا خالى ٠٠ لا أعرف كيف وجدت نفسى فوقها ٠٠ »

فلسعه خاله بالعصا فوق وجهه وهو يقول :

ـ « ألا تعرف الحياء يابن الكلب ٠ انـــكتم وأرحنى من أكاذيبك يا نجس ٠٠ »

مسح **مخيمر** شفتيه ، فعلق بعض الدم بظهر يده ، وما لبث أن قال :

ـ « والله والله هذا هو ما حـــدث ٠٠ وما كنت أعرف أنك قادم ٠٠ »

قال الشيخ بأسى :

ـ « رآك على الصـــياد وانت تنط من الشـــباك مثـــل الكلاب ٠٠ »

قال **مخيمر :**

ـ « قالت لى انك وعلى الصياد ستحضران لعلاج ابنها نور .. لكننى كنت أعمى .. لم أصدقها .. وحدث ما حدث » .

نهض **الشيخ** ، رمى عصـــاه فوق التبن ، وخرج من غرفة العلف ، عبر حوش الدار ، انطلق فى الشـــارع لايرد تحية من يحييه ، ولا يحيى من اعتاد أن يحييهم ، ظل يمشى ، والدم يضرب فى دماغه حتى وجد نفسه فى الخلاء ٠٠ قرب دار « **فتوح أفندى** » ناظر المدرسة الابتدائية ، بجوار الغيطان ٠٠ فدخل وانحط على الكنبة الاسطمبولى وظل صامتا يستغفر الله من كل ذنب عظيم ، واعترف بأنه استباح لنفسه مالا يرضاه لغيره ، وأنه كان يجب أن يقيم الحد على **مخيمر وبلطية** ، أو يترك عقابهما للضابط وجدى

.. واخذ يتلو : ((**ألم تر كيف فعل ربك بعاد . ارم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفوعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فاكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . ان ربك لبالمرصاد ..))**

لو كان **وليد وعصام ويوسف** بالبلد الآن ، لجادلوه .. ولقالوا له : **الدين لله .. والحياة لنا ، يجب أن نصوغها لتكون جنة تسع الجميع ..** »

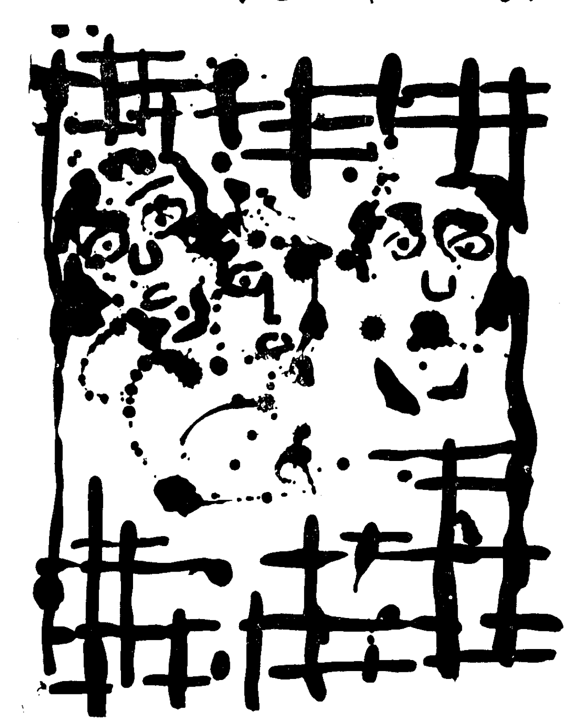
كان سيقول لهم : « **بالعقل يا أولاد .. بالعقل ..** »

وكانوا سيتفقون معه بعد نقاش ، فهم عقلاء ، وهم أطهار وكان سيتفق مع كثير من آرائهم عن جنة الدنيا التى يحلمون بها ويريدونها تفوق أو تضارع جنة الآخرة ..

أحضر له « **فتوح أفندى** » فنجان القهوة ، وقال له انه سينشغل عنه قليلا ، **فهو يدخل النور للبيت ، ثم تركه وحده فى المندرة . أحس الشيخ تهامى برغبة جارفة فى أن يبكى أو يصرخ ، كان يحس بضعفه ، بحيرته ، بنفاد صبره ، وكان يدرك أن الفضيحة ستلف البلد طولا وعرضا قبل أن تحل صلاة الظهر ، فذكر الله كثيرا ، وحاول أن يتماسك ..**

٨ ـ ذكريات الشهور السوداء :

« ان من يدخل زنازين القلعة لا يسمح له الا بكتابة شيء واحد هو . . الاعتراف . . فهناك كل بريء متهم .. حتى تثبت ادانته . . ! »



كان ((فتوح أفندى)) مشغولا مع ((الاسطى عطوة)) فى تركيب النور فى جدران البيت . كان ((عطوة)) يريد أن يضع فيشة فى المندرة ، لأن فتوح افنـــدى حتما سيشترى منـه ((تليفزيون)) ، لكن فتوح افندى شوح فى وجهه وقال :

ـ « أوجعت دماغى يا عطوة .. انكتم » .

.. وانكتم عطوه ، فهو يعرف قدر نفسه ، خاصة أمام أمثال ((فتوح أفندى)) ، والشيخ تهامى ، اللذين يناديانه باسمه ((عطوة)) أو يتكرمان عليه بلقب « أسطى » اذا تذكرا أنه كان يعمـــل فى ((ورشة كهرباء)) فى حى السيدة زينب منذ هرب من البلد وهو فى العاشرة من عمره ..

قال فى سره : « لو أن « عصام » هنا الآن ما جعـــل والده يدخل النور الى داره الا اذا أحضر العداد أولا ، ولايهمه تلنا بأنه لص .. ينهب نقـــود من أدخـــلوا الكهرباء الى دورهم من أهل البلد .. »

ضاق «عطوة» فجأة بذكرى «الأولاد» وقال : « اللمبـــة الواحدة بربع جنيه .. أهذا ســعر يا عالم . لو عرفتم كم دفعت

ثمنا للاسلاك ٠٠ » ثم بصـــق وأضاف : « **بلد تحب الظـــلام كالوطاويط ٠٠** »

ثم ٠٠ مال على السلم الخشبى الذى اعتلاه ليربط الأسلاك ، وسأل فتوح أفندى :

ـ « **لو تأمر لى بكوب شاى آخر ٠ وسيجارة ٠٠ أكون شاكر الفضل ٠٠** »

ـ فضحك فتوح أفندى وقال :

ـ « **ستظل شحاذا يا عطوة يا ابن أمينة ٠٠** » ٠٠

اغتم عطوه، فقد نكأ فتــوح أفندى جرحه الذى يحرص على اخفائه عن الناس ٠ ان أحدا لم يعد يذكر أن أمه « **أمينة العاجزة** » كانت تحمله على كتفها وتلف شوارع وأزقة البلد تشحذ الخبز . كانت تأخذ من كل دار رغيفا ٠ كانت تفعل ذلك حتى والدنيـــا برد ٠٠ والشتاء يبلل ثيابه وشعره فيختلط التراب بالمطر ويلمع الطين على جسده شبه العارى . انه لا ينسى ذلك ، **بل ان ذكريات مفزعة تقفز الآن من أعمق أعماقه ، يوم ماتت أمه ٠٠ دهســـتها عربة نقل كانت تحمل قطن الفـــلاحين ٠ كانت الدنيا برد ، رصاص ، والطين للركب فى الشوارع ، وتزحلقت عجلات العربة ، عافر السائق ، ثم صرخ فى « أمينة العاجزة » لـــكن القضاء كان أســـبق من صراخ وأيادى كل من شاهدوا الحادث ٠٠ وماتت « أمينة العاجزة** » ، رآها هو مدهوسة تحت العربة ودمها يصـبغ الطين ٠ بكى يومها ، لطم وجهه ، مرغ نفسه فى الطين ، لكن أمه ظلت ميتة ولم تهتم بعويله ، وحمله النـــاس الى داره ، ثم رآهم يحفرون جدران الدار وأرضها ويكسرون « بلاص المش » ويقلبون صفيحة الأرز ويهدمون الفرن ، **ثم تخاطفوا « صرة » صـــغيرة ،**

وتشابكوا .. تعاركوا ، ضربوا بعضهم بعنف افزعه ، ثم .. تركوه وحده وخرجوا بعد أن اقتسموا التركة .

وعندما كبر قليلا فى بيوت الجيران ، عرف أن أمه كانت تدفن **كنزا** فى جدار الفرن الذى لم تستعمله أبدا ، وأنها كانت تبيع خبز أهل البلد للأنفار الذين يبنون الكوبرى ، وبعد أن ذهبوا كانت تبيعه للعمال الذين يبنون صهريج الماء عند الترعة ، وعندما ذهبوا هم أيضا أخذت تبيعه لمن يبنون المدرسة الاعدادية ، ثم ، وعندما توقفت حركة المشاريع الجديدة بالبلد ، عادت الى زبائنها القدامى من عمال التراحيل الأغراب ، الذين ظلوا يعملون فى غيطان التفتيش كما كان آباؤهم يعملون منذ سنوات طويلة .

لم يكن لعطوة أقارب بالبلد . قالوا ان أباه غريب عنا .. كان «**مراكبيا**» يشد حبل المركب من المنزلة لأسوان ضد التيار.. وكان يعود لزوجته مرة كل عامين أو ثلاثة ، ثم اختفى ، وقيل انه غرق ، وقيل انه تزوج فى بلد آخر وانه صار من أصحاب المراكب ، وقيل انه عمل فى «**السد العالى**» وأصبح سائق جرار، وانه سرق بعض الأدوات وهرب ، أو سجن ، وقيل انه طلق « أمينة العاجزة » .

لكن «**عطوة**» لايذكر انه رأى أباه ، وقد سمع مرة امرأة من الجيران تقول : ان « **أمينة** » كانت مخاوية عفريت تحت الأرض ، وقد حبلت منه فى الولد عطوة ، لكنه عندما كبر ، وصار فى العاشرة نسى كل شىء ، وتشاجر مع خولى الأنفار فى أرض «**التفتيش**» وشتمه وقذفه بطوبة فى وجهه ، وهرب من البلد كلها عبر **الكوبرى** ، وسار مع شريط السكة الحديدية حتى تورمت قدماه وهده الجوع ، فنزل الى « **الزراعية** » وجلس يبكى ، وفى آخر الليل التقطه سائق عربة نقل وجعله ينظف العربة كل يوم

بجردل الماء ، لكنه هرب منه ذات ليلة عندما ضربه وفعل معه شيئا جمد الدماء فى عروقه .

ظل « عطـوة » تائها فى البنـدر أياما .. نام فى بعض الجراجات ، أكل مع بعض الصبيان فى الورش ، وأقنعه أحد العقلاء بأن يتعلم صنعة تنفعه ، فانضم الى ورشة الكهرباء بحى السيدة زينب ، ونسى كل شيء عن أمه العمياء ، لكنه ظل يحن للعودة الى البلد .. ليريها من هو .. !

* *

صاح به « **فتوح افندى** » .. :

ـ « ستهدم الجدار ياعطوة . ما كل هذا الحفر . أهو سلك كهرباء أم قضيب سكة حديد ؟ .. »

انتبه « **عطوة** » لنفسه ، وتنهد ، كمن قب فجأة من تحت الماء وأنقذ من الغرق . قال فى سره :

ـ « ولآخر الزمن يجيء أولاد الكلب ليقولوا أننى حرامى .. أبيع الكهرباء غاليـة للبلد .. انهـا غلطتى أنا .. فهم لايستحقون النعمة .. »

ثم قال **لفتوح افندى :**

ـ « عقبال ما أعلق الزينة يوم عودتك من الحجاز .. »

كان لا ينسى مجاملة الناس وارضاءهم بالكلمة الحلوة ، ولو من وراء قلبه ، فهكذا تعلم ضمن ما تعلم من الدنيا ليأكل عيشه كما يريد .

لكن فتوح أفندى قال مؤنبا :

ـ « بل يوم عودة الأستاذ عصام ان شاء .. سأضيء الشارع كله وحياتك يا عطوة .. »

اغتم عطوة ، وانهمك فى حفر مجرى للسلك ، فى الحائط . وجاءت دقة من القادوم على اصبعه فشتم عصام ووليد ويوسف والبلد كلها فى سره .

* *

قال فتوح أفندى معتذرا :

ـ « كما ترى ياشيخ تهامى ، شغلنى عنك الولد عطوة وطلباته .. »

ثم أضاف وهو يجلس قبالة الشيخ :

ـ « النور نعمة كبرى .. وضيوفى كما تعرف .. من مقامك .. ناظر المدرسة الاعدادية ، المدرسون ، المفتشون ، الضابط وجدى .. قلت انير البيت ولا داعى للحرج .. »

وضحك .

قال الشيخ تهامى :

ـ « النور نعمة غالية ، لكن ظلام النفوس مازال مخيفا .. »

تنهد فتوح أفندى ، وتذكر ابنه ، قال :

ـ « الغريب يا شيخ تهامى ، ان جواباتى لا تصل لعصام . أنا أعرفه ، منذ سافر للجامعة وهو يكتب لى بانتظام كل أسبوع . ولو أن رسائلى تصله فى القلعة لكتب ردا يطمئننى » .

فقال الشيخ تهامى :

ـ « ومن قال لك انه يسمح لهم بكتابة خطابات ؟ .. أن من

يدخل زنازين القلعة يا فتوح أفندى ·· لا يسمح له الا بكتابة شيءٍ واحد فقط ·· هو الاعتراف ·· »

قال فتوح أفندى :

ـ « الاعتراف ·· بأى شيء ·· ان الأولاد لم يفعلوا شيئا ضد أحد ·· »

أضاف الشيخ تهامى ، وقد انجذب برغمه الى ذكريات الشهور السوداء فى سجنه :

ـ « قالوا لنا يوما من يطلب النجاة لنفسه عليه أن يدلنا على زملائه وأصدقائه ·· أقصد شركائه ، وأن يكتب اعترافا كاملا وصريحا بكل شيء ·· »

سأل فتوح أفندى بفزع :

ـ « والبرىء ·· ؟ »

قال الشيخ :

ـ « لا أحد برىء عندهم · الكل مخطئون ، الكل متآمرون ·· وطالما دخلت الى الزنازين ، فلابد أن تعترف ولو بأى شيء ، وأن تتعلم كيف تحترم الأسياد وان تشيد بأفضال مفروض أنها حدثت وان كنت لا تعرفها فأنت جاهل أو متجاهل ·· »

صمت الشيخ لحظة ، ثم أضاف :

ـ « كان عمر بن الخطاب يقول لوزرائه : « لا تضربوا الناس فتذلوهم ·· ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ·· »

قال « فتوح أفندى » برعب واضح :

ـ « لكن أولادنا لا يحتملون ·· »

قال **الشيخ تهامى :**

ـ « أتعرف ‥ ليس هناك ما هو أشد قسوة من « الاذلال » الذى يصل بالانسان الى حد أن يكفر بالنظام الذى يعيش فى ظله ‥ لقد كان المكلف بتأديبى، أو باقناعى بكتابة الاعتراف ـ تصور ـ عسكريا مسكينا ، قال لى مرة ، فى لحظة من تلك اللحظات التى يصحو فيها الضمير ويعلن عن قلقه وعذابه ، قال انه من الصعيد ‥ من قرية فلان الفلانى نفسها ، وأنه كان ضمن حراس الحدود، وقد ظل يحلم بأن يضبط عصابة تهريب ليأخذ مكافاة تغنيه العمر كله ويعود الى بلده ويتزوج من يحبها ، ويربيان أولادهما ‥ لكنه عندما ساعده الحظ وامسك فى ليلة احد المهربين، فوجىء برئيسه المباشر ـ كان صولا ـ ينسب الأمر كله لنفسه ولبراعته هو ويقظته، ولما تجرأ العسكرى وقال الحقيقة ، اتهمه الصول فى تقرير رسمى بأنه كان نائما فى الخدمة ومهملا فى عمله ، و ‥ باختصار ، وجد العسكرى نفسه فى حرس السجن الحربى وملحقاته تقديرا له » .

تزايد فزع **فتوح افندى** ، بلل العرق جبهته ، ووجهه الأبيض الشاحب ، الممصوص رغم استدارته ، وسأل :

ـ « ‥ وضربوك يا شيخ تهامى ؟ ‥ »

قال الشيخ :

ـ « هناك يا صاحبى ، لا كبير على الضرب ، ولا حدود لامتهان كرامة الانسان الذى كرمه الله . وقل ما شئت عن الكرابيج ، عن الخوازيق ، عن الماء المغلى الذى يجبرونك على القفز اليه للنجاة من لسع الكهرباء واطفاء السجائر فى جلدك و ‥‥ »

صاح **فتوح افندى :**

– « الأولاد فى خطر .. سيموت عصام .. انه لا يحتمل الهواء الطاير .. لم يفعل أى شىء .. انه برىء .. »

قال الشيخ :

– هنـــاك .. كل برىء .. متهم حتى تثبت ادانته .. وما أسهل اثبات الادانة ، لقد كدت أموت قبل أن يتأكدوا فعلا من أننى برىء .. »

قال **فتوح أفندى :**

– « وأولادنا .. كيف نثبت براءتهم المؤكدة » .

قال الشيخ :

– « دع الأمر لله .. فقد فعلنا فوق ما نستطيع . وثق أنهم سيعودون من هناك رجالا .. سيتألمون حقا .. سيصرخون .. ستتردد صرخاتهم فى جنبات القلعة وما من مغيث ، وسيبكون وما من رحيم، وسيهينهم العساكر وسيضحكون عليهم ويسخرون من ضعفهم ، وقد يشتهى أحد أن يلوط بهم ، وستفتح جهنم أبوابها ، ويفقد الأولاد صوابهم ، لكن ثق فى رحمة الله وعدله ، انهم أطهار ، وكانوا مع أهل البلد على الدوام .. ويقينى الذى لا يخيب أن الله مع عباده الصالحين دائما .. »

أحس فتوح أفندى أنه يتضاءل ويزداد انكماشا وذهولا .. وانخرس ، وتذكر ابنه عصام ، براءة عينيه ، نقاء سريرته .. طهارة قلبه ، حبه للناس ، اصراره على تعليمهم وتوعيتهم بحقوقهم ، شجاره من أجلهم مع العمدة ، مع رئيس الجمعية الزراعية مع المحافظة ، مع المركز ، كان يقول : « ان القوانين تصدر من فوق .. لصالح الناس .. لكنها عندما تصل للبلد .. على شمال السماء ،

تلتوى وتصبح شرا يضر النـــــاس ارضاء لبعض المســـئولين وأعوانهم ·· »

وغمغم فى حسرة :« **يارب لطفك بنا ··** »

وطال الصمت وثقل ، فأراد الشـــيخ تهامى أن يسرى عن صديقه ، فقال له :

ـ « **ثق أن للأولاد ربا يحميهم · المهم ما نحن فيه من بعدهم ·· الكوارث تتلاحق والطوفان يزحف من حولنا ··** »

انتبه فتوح أفندى نصف انتباهة ، وسأل :

ـ « **أية كوارث أخرى يا شيخ تهامى · أما كفاهم ما حدث لنا ؟ ··** »

قال الشيخ :

ـ « **سمعت طبعا بعراك بلطية مع أم خالد ··** »

قال فتوح : « سمعت ·· وحزنت ·· »

قال الشيخ : « وسمعت بما فعله ابن أختى مخيمر » ·

قال فتوح : « ماذا فعل الولد الطائش ؟ ·· »

فروى الشيخ تهامى الفضيحة ، وأضاف :

ـ « لو لم أره بنفسى ـ البغل ـ وهو ينط من شباك بلطية لما صدقت أبدا ما جرى ·· »

ابتسم فتوح أفندى مرغما ، دهمته ذكريات شـبابه المبكر وشقاوته مع بنات المنصورة يوم كان طالبا بمدرسة المعلمين ·· ولكنه قال بأسى ظاهر : « انه زمن الحرب يا شيخ تهامى ·· على أيامنا كانت حرب هتلر والآن حرب ألعن منها ·· »

قال الشيخ تهامي : « حجة واهية يا صاحبى انه زمن أولاد الأبالسة ، الذين ظنوا أن الله فى غفلة عن أفعـــالهم . انه زمن الجشع والشهوات والملذات والسعى الى ركوب الموج ، واعتــلاء المناصب ولو بغير حق .. نحن كالعادة نســتكين .. اذا فاجأنا الكرب لمنا غيرنا ونسينا أننا عمى القلوب .. »

قال فتوح أفندى : « قرأت مرة فى أحد كتب ابنى عصام .. شيئا مثل الذى قلته .. أظنه كان يقول : « انه لكارثة أن تعيش فى زمن فقد فيه أبطال التاريخ والرسالات سحرهم الخاص وقوة سيطرتهم على خيال الناس .. »

قال الشيخ تهـامى : « كان رســـــول الله ذاته ينهزم من الكفار .. وكان عمر .. وكان خالد ، وكان غيرهم من الأفاضل يذوق مرارة الهزيمة والانكسار ، لكن ما حدث فى أيامهم مثل الذى حدث لنا .. لأن الايمان كان قويا ، ولأن الناس كانوا أخيارا أحباء لبعضهم حقا » .

قال فتوح أفندى :

ـ « اننا فى عصر يختلف يا صاحبى ، لم نعد ـ كما تعرف ـ نركب الجمال ، وهاهى أخبار هبوط أول انسان على سطح القمر تصلنا أولا بأول ونحن فى بيوتنا بسرعة البرق .. »
قال الشيخ تهامى :

أنا معك .. لكن ألست معى فى أنه مهما حدث ، ما كان يصح لأحد أن يفقد صبره ، وما كان يصح لولد مثل مخيمر الكلب أن يفقد ايمانه ويفعل ما فعل .. »

قال فتوح أفندى :

ـ « كان ابنى عصام يقول لى : «ان الهزيمة وما خلفته من

احساس بالعار ، لم تترك لأحد منا أن يفكر بروية ، ومن ثم لابد من جهد مضن لنتأكد من أنه ما زالت لدينا المقدرة على أن نجد قدوة حسنة متمثلة فى شخصية متفردة بعبقريتها التى جذب الناس اليها بشجاعتها وقوة ايمانها » .

قال الشيخ تهامى :

ـ «وكان نسيبى «**وليد**» يقول عنى اننى ماعدت قادرا وحدى على اقناع أهل البلد بشىء نافع ، ومع ذلك لم أغضب منه ٠٠ رغم أننى ما قصرت أبدا ، ويشهد الله أننى أبذل قصارى جهدى ليتحاب الناس ٠٠ »

قال فتوح أفندى : « المشكلة أن الشك ملأ القلوب فى كل ما قيل لهم وفى كل ما يروى أيضا ، وهو شك قاتم يحول بيننا وبين تصديق أى شىء على الاطلاق ٠٠ »

قال الشيخ تهامى :

ـ « أراك تتحدث بلسان الأولاد يا فتوح أفندى ٠٠ »

فقال فتوح أفندى :

« الأولاد ؟ ٠٠ كانوا لساننا كلنا ، وما قالوا شيئا غريبا علينا ٠٠ كل ما فى الأمر أنهم كانوا أكثر شجاعة منا ، وكانوا أكثر فهما لما حدث ، وكانوا اشدنا فزعا وألما من أجلنا ٠٠ »

قال الشيخ تهامى :

ـ « لكنهم كانوا فى حاجة لمن يرجع الى العقل ٠٠ فقد أضاعهم الطيش وقلة الخبرة ٠٠ »

قال فتوح أفندى :

ـ « اسمع يا أخى وصاحبى ٠ انه فى مثل هذا الزمن الأغبر

... تصبح نصائح الآباء ، شأنها شأن سيرة الأبطال القدامى ، مثار تندر الأولاد ، وتجعلهم يضحكون باستهزاء .. »

أراد أن يضيف : « وعصام ابنى كان على حق فى كل كلامه وأفعاله .. » لكنه اكتشف فجأة أن « عطوة » كان قد ترك الحفر فى الحائط لمد الأسلاك ، وأخذ ينصت اليهما باهتمام غريب فنهره :

- « ايه يا عطوة .. اتريد شيئا ؟ .. »

فزع عطوة ، ارتبك ، أسرع يبتسم ، ويدارى أمره بطلب كوب شاى آخر وسيجارة ، ثم ضحك باستظراف مبالغ فيه وعاد يحفر الحائط .. وهو يمنى نفسه بربح وفير ، فهاهو يقع على فريستين لهما وزنهما ، وسيجعله ذلك محل ثقة الضابط وجدى ، الذى لا يريد أن يعترف له أبدا بفضل أو يشهد له بذكاء ..

* *

فى الليل ، عاد « مخيمر » الى داره رافعا رأسه ، وقد أراد أن يؤكد لزوجتيه أنه مازال كما هو ، وأنه قادر اذا شاء على ضربهما حتى الموت، لكنه أحس بداخله خجلا يسرى فى دمه من «بسيمة»، فقد وعدها بألا يعود الى « بلطية » أبدا ، ولذلك دخل حجرة « أم عديلة » التى طالما أثارته بعجيزتها السمينة ، لكنه الآن لا يشعر برغبة فى أى شيء، فقدماه المتورمتان تذكرانه بكل ماحدث

جلس قليلا مع أم البنات التى حرصت على اكرامه فى الطعام ، وظلت قليلة الكلام خشية أن يفلت لسانها الأعمى فتشير للفضيحة دون قصد فتؤلمه وتجعله يطين ليلتها ..

سألها : « **نامت البنات يا أم عديله ؟ ..** »

قالت فى وجل : « **من المغربية ياخويا ..** »

أعطاها نصف جنيه وقال : « اشتر جلبابا جديدا لك » . ثم ربت على صدغها بحنية ، مثلما كان يفعل منذ زمن طويل قبل أن تكون لها خبرة ، فالتهبت رغبتها وتمنت لو نام معهـــــا وكسر عظامها بذراعيه وركبتيه مثلما يفعل معها حتى يهد حيلها ويعرق فوقها ..

لكنه قام ، فحاولت كبت ألمها ، ولم تشأ أن تسأله الى أين ، فهى تعرف أن « بسيمة أقدر منها ــ مهمـــــا غالطت وتبجحت وتضايقت منها ــ على أن تجعل « مخيمر ينسى كل ما حدث ، فهى شابة ، حلوة ، وشها كالبدر ليلة تمامه وعيناها غزلانى ، وجسمها كجنية البحر التى تسمع عن حكاياتها مع الصيادين ، وتعـرف كيف تشبع مخيمر .. وعيبها بنت الـ ... انها تمتص كل ما فى نخـاع الرجل .

ودفنت أم عديلة نفسها تحت الغطاء ، رغم الحرارة المتأججة فى جسدها السمين ، وعاهدت نفسها من جديد ، على الصـــــبر والاحتمال والرضا بالمكتوب لها ، ومع ذلك فرت الدموع من عينيها وأحست بالبرد والوحدة ، عندما سمعت باب حجرة بسيمة يغلق بالترباس ، وسدت أذنيها وكزت على أسنانها ، حتى لا تســـمع آهات البنت التى تجعل الدم يضرب فى يافوخها ..

* *

بعد منتصف الليل بقليل .. كان «عطوة» ينقر باب الضابط وجدى ، بعد أن رشا عسكرى الحراسة بسيجارة وتعميرة حشيش وأفهمه أنه يريد حضرة الضابط فى أمر شخصى وعاجل وخطير وأنه « يعرف أن الضابط فى انتظاره حسب اتفاق سرى بينهما .. »

وأخيرا ، وبعد أن اتعبه الانتظار والقلق ، وجـد نفسه أمام

الضابط وجدى ، فى حجرة مكتبه بالمنزل ، فابتسم وقال بضعف متقن :

ـ « لدى أخبار تهمك ‥ »

أشعل الضابط وجدى سيجارته ، بعد أن قدم واحدة لعطوة ، وهز رأسه ، فأضاف عطوة بكثير من الدهاء :

ـ « الشيخ تهامى وفتوح أفندى ‥ يتآمران ضد مصلحة البلد ‥ وقد سمعتهما بنفسى ‥ فقلت ان واجبى هو أن أنبهك، فانا لك ـ كما ترى ـ خادم مطيع ويهمنى أن ‥‥ »

سأله الضابط : « **هه ‥ وماذا سمعت ؟ ‥** »

انبسطت أسارير « عطوة » ، وأخذ يروى له ما سمعه ، ويضيف اليه ما شاء له خياله أن يضيفه، وداخله الاحساس بالزهو ‥ فها هو قد استطاع أخيرا أن يثبت للضابط وجدى أنه ذا نفع له ، وأنه لا غنى عن خدماته السرية اذا أراد أن يحكم البلد ويسوس أمورها ‥ كما يتمنى له أن يفعل ‥

لكن عطوة ـ ولدهشته البالغة ـ رأى الضابط وجدى ينهض واقفا ، والغضب يطل من عينيه ، ويفتح له الباب قائلا :

ـ « أرى أن تهتم بماكينة الكهرباء يا عطوة ‥ »

بهت عطوة ، احس أنه يعود الى تلك الليلة ، يوم أجبره سائق عربة النقل على أن يخلع سرواله ، ازداد انكماشه ، اصفر لونه ، لمعت صلعته ، حاول الدفاع عن نفسه ، لكن الضابط وجدى أخرسه بقوله :

ـ « التصنت على الناس عيب يا عطوة ‥ »

اسرع عطوة الى الشارع مرعوبا ، لكنه كان فى حيرة من أمر

الضابط وجدى . أهو رجل صالح الى هذا الحد ؟ .. أم تراه يراوغ ويريد أن يثبت لعطوة أنه ليس سهلا ، وأن عليه هو أن يتعب حتى يحظى بشرف صداقته ؟ ، لم يستطع « عطوة » أن يخمن شيئا يريحه ، فازداد ضيقه ، واتهم الضابط وجدى بأنه مغرور ، ولا يعرف قدر عطوة كما يجب .. وقال لنفسه : « سيأتى اليوم الذى يندم فيه هذا الضابط .. ويعرف من أكون ! » .

* *

فى اليوم التالى ، روى عطوة ، لعبد الهادى ، ما حدث من مخيمر مع بلطية ، وضحك وجذب نفسا من الجوزة فصهللت النار فى الحجر ، وسمع « **ابو فصادة** » بائع الفول السودانى والترمس فى المقهى، الحكاية ونقلها وهو يعرج بساقه الخشبية الى الزبائن، ومنه أخذها « المغاورى » صاحب العربات الكارو ، فأعلنها للعربجية ، وفى الظهيرة كانت البلد كلها تتندر بفضيحة مخيمر الذى « ضبطه خاله الشيخ تهامى بنفسه فوق البنت بلطية » وقال الناس : « **لو تنقتل بلطية مثل وجيدة الفلاحة ؟!** »

* *

وفى معسكر المهاجرين ، قالت هدى : « **لو أن يوسف كان هنا ، لما حدث كل هذا** » . وأحست بشوق جارف اليه .. الى صوته ، الى ذراعيه ، الى أحضانه الى صورتها التى تنعكس فى نن عينيه ، الى أحلامهما فى بيت صغير كعش العصافير يعيشان فيه ويطفئان عطشهما الشديد للحب .. !

* *

وفى حجرة **بلطية** ، كان « **على الصياد** » يعطى الحقنة للولد « نور » ، وعندما أعطته بلطية « شلنا » رفض وقال :

– « لم أكن أعرف – وسامحينى يا بنتى – انك بنت أصول »

فلما ألحت عليه وأصرت على أن يأخذ « الشلن » ، قال :

– « الشيخ تهامى أعطانى ما يكفى ٠٠ وكذلك مخيمر ، حمل الى دارى فى صباح ربنا كيلة قمح ٠٠ » ثم أضاف : « **المهم ربنا يشفى نور ٠٠ ليكبر ويصير رجلا ٠٠** »

* *

وفى دار الشيخ تهامى ، تساءل الولد « خالد » :

– « متى يعود خالى وليد ٠٠ لقد أوحشنى ٠٠ ؟ » .

فقالت جدته العجوز :

– « لكل شىء أوان ٠٠ »

٩ ـ دعوة فى الصباح :

« كانت البنت عديلة تتســــلل الى مخــزن الخيش . . وقلبها يرجف .. وضفيرتها الطويلة حائرة .. و »



كان الليل يزحف على البلد ، وكانت البنت « عديلة » تتسلل الى مخزن الخيش ، وقلبها يرتجف ، وضــفيرتها الطويلة ــ ذيل الحصان ــ حائرة بين يدها وأسنانها ، وكانت نظراتها زائغة . وكانت قدماها تقودانها الى « عبده البورى » . كانت مرعوبة من أمها ، ومن خيزرانة أبيها مخيمر ، لكنها مع ذلك وافقت «عبده البورى» عندما دعاها فى الصباح ــ سرا ــ لزيارته فى مخزن الخيش .

كان عمره فوق العشرين ، فوق الثلاثين ، لا تعرف ، وكان عمرها فوق « الحمستاشر » ، فوق العشرين ، هو لا يعرف ، لكنها كانت فائرة الجسد ، حلوة ، شقراء الوجه ، عســـلية العينين ، صفراء الشعر ودمها خفيف ، وكان يمر فى الحـــارة ، أمام بيت مخيمر كثيرا ، ينادى « خيش قديم للبيع » ، ليشترى من أمها ، أو لا يشترى ، لا يهم ، فهو يريد أن يرى البنت عديلة ويمــلأ عينيه منها .

وفى الصباح ، كانت أمها تتعارك مع « **بسيمة** » كعادتهما .. وكان « عبده البورى » ينظر اليها بنصف عين ، وكانت سنه الذهبية تلمع فى فمه وهو يبتسم لها ، فابتســـمت له ، ونظرت اليه من صندله البلاستيك ، وبنطلونه الكاكى المبقع ، وقميصه « الجيشى » ، وعنقه القصير كعنق أبى فصاده ، وشاربه الرفيع مثل شارب أبيها

مخيمر، ووجهه الأسمر الممصوص، وعينيه ذاتى اللون الخواجاتى.
وتذكرت ما تقوله أمها لضرتها بسيمة عن عيـــون الخواجات فى
وشوش المهاجرين . وضحكت . خرجت ضحكتها تكركر بعذوبة
دخلت قلب « عبده البورى » ، وجد نفسه يقترب منها خطوة ، ويكف
عن ندائه على «الخيش القديم» ، والتقت عيناه بعينيها ، وأحس
بجمالها ، وقال :

ـ « **فيك جمال الدنيا والدين يا بنت يا عديله** » .

.. بعدها بيوم ، بيومين ، كان « **عبده البورى** » يقف على
عتبة دار « **مخيمر** » ، يفاصل مع الست أم عديله » فى ثمن كيس
فارغ من أكياس القطن ، ورغم أنه كان ممزقا وقديما ، الا أن عبده
البورى تهاون كثيرا مع أم عديله وأعطاها سعرا عاليـــا ، قال :
« بريال كامل » ، وجعلها ذلك راضية مرضية ، فضاحكها بنكتة من
نكات كثيرة يحفظها منذ كان يعمل فى ورش ميناء بورســـعيد ،
وجعلها تضحك من قلبها وتنسى حقدها على المهاجرين بســـبب
«بسيمة» .. لكن عينيها دمعتا من كثرة الضحك فقالت : « **اللهم
اجعله خيرا** » .

استخفت أم عديله ظل عبده البورى ، وسألته عن السبب
الذى جعلهم يسمونه هذا الاسم « الزفر » ، وهل كان بائعا للسمك
ثم مال حاله ، فضحك وقال لها : « انهم يسموننى البورى من وأنا
طفل ، ربما لأننى ـ كما ترين ـ ممصوص .. رفيع، ليس فى بطنى
بطارخ .. » وضحكا .. وشجعه ذلك على أن يعطى عديله قرطاس
« الملبس » الذى كان قد اشتراه من « عم بيومى البقـــال » الذى
استأجر دكانة محمود رمضان ـ الله يجحمه ـ كما قالت أم عديلة
وهى تسأله متضاحكة عن الذى حدث بينه وبين البنت وجيـدة
ـ الله يرحمها ـ ! .

تضاحك عبده البورى ، وقال : « كانت شرقانة قوى يا ست أم عديلة ‥ » فخبطته فى صـــدره وضحكت وشـتمته وشتمت وجيدة أيضا ‥ وانتهز عبده البورى الفرصة وداعب خدى البنت عديلة براحتيه وهم أن يقبلها ، لكن البنت انفلتت من يديه وقد احمر وجهها واهتز قلبها فى صدرها :

بعد يومين ‥ بعد أسبوع ، رآها عبده البورى ، فى طريقها الى السوق مع أمها ، فاشترى لها « صباع عسلية » ، وباع لأمها « كيلة القمح » بسعر كبير ، وبعد أســـبوعين كان يعطى للبنت « زجاجة ريحة » رائحتها تدير الرأس ويشمها الناس على مسافة حارتين ٠

وفى طريق عودتها من كتاب « الشيخ تهامى » ــ بعد أن أوصلت أختها الصغيرة ــ وجدته أمامها ، وســـــمعته يقول لها : « سأكون فى انتظارك الليلة فى مخزن الحيش ‥ » ، وهبط قلبها الى قدميها ، وأسرعت الى الدار ٠

‥ ‥ ‥

‥ ‥ ‥

خبطت « عديلة » باب المخزن بيد مرتعشة ، ومرت لحظة أو ثانية ، أحستها عشر سنين ، وظنت أن البلد كلها سمعتها وهى تخبط الباب ، رغم أن المخزن فى خرابة على شمال البلد ، لـكنها فوجئت به يفتح الباب ويفسح لها الطريق فدخلت ، ووقفت مرتبكة أمام « سى عبده » ! ‥

جلس « البورى » ، وأجلسها بجواره ، فوق كوم من الحيش القديم ، وأشعل سيجارته ، ولحس سنة أفيون من « ورقة قزاز » ، وظل صامتا بعض الوقت ، ثم أعطاها قطعة كبيرة من « البسبوسة » وقال :

ـ « لا تخافى يا عديلة منى . أنا لا أنوى بك شرا .. »

وصمت وقتا طويلا .. ثم أضاف :

ـ « لم لا تذهبين الى المدرسة .. ؟! » .

قالت عديلة : « وصلت الى سنة ستة ابتدائى .. وقال أبى كفاية .. وقعدت فى الدار من يومها .. »

وأرادت أن تقول له ان أمها تقول انها « على وش جواز » ..

قال البورى : « خساره والله .. »

قالت : « أمى تقول اننى كبرت .. »

قال ضاحكا : « وصرت عروسا حلوة .. والله » .

حنت عديلة رأسها حيـاء ، اندفع الدم الى خديهـا فزادها حلاوة ، وحكى لها « البورى » حكايات كثيرة ، عن أبيه الذى كان « جناينيا فى كامب الانجليز ،ثم مات ، وعن أمه التى كانت تبيع الفراخ للخواجات واندفنت تحت البيت فى حرب ٥٦ وعن أخته التى تزوجت وهاجرت الى بلد زوجها فى أسيوط ، وعن وحدته الطويلة بعد أن تزوجت « البنت فاطمة » ، بنت الجيران فى حى المنـاخ ، تزوجت من أفندى موظف وكسرت قلبه ، ثم نظر طويلا الى وجه عديله ، وشعرها ، وعينيها ، وتنهد ..

وقال :

ـ « الخالق الناطق يا عديلة . صحيح يخـلق من الشـبه ألف .. » وضحك وضحكت ، وأضاف : « لـكن أنت أحلى من البنت فاطمة .. »

.. وحكت له عن أمها ، وعراكها مع « بسيمة » ، وسألها .

ـ « يا ترى أبوك يوافق .. ؟ » .

.. وسألته عما فعله مع وجيدة الفلاحة يوم أخذته بالعافية الى دارها .. وضحك وحكى لها كل شيء ، وخجلت وهمت بالقيام ، فطوقها بذراعيه وقبلها وضمها .. فاصفر لونها ، وارتعشت وقالت : « **حرام عليك ..** »

وطمأنها ، وعلمها مالم تكن تعلمه عن العلاقة الجنسية من فوق الثياب ، وأخذ يضغط صدرها الطازج حتى لان تحت يديه و .. أحست بالعطش يحرقها من الداخل ، وتمنت لو أنه خلع كل ثيابها ، وتمنت لو غنجت فى حضنه مثلما تغنج « بسيمة » فى حضن أبيها .

بعد ساعة ، أقل ، أكثر ، نهضت عديلة وسوت ثيابها وشعرها ، وقالت انها لابد أن ترجع حالا قبل أن تقلب أمها الدنيا بحثا عنها ، ونهض « البورى » ، وفتح لها باب المخزن وانفلتت تجرى وقد اصفر لونها ، وازدادت دقات قلبها .

* *

فى ضوء القمر الشاحب ، وقف يتأملها حتى غابت فى الأزقة ، وقال فى نفسه : « سأطلب يدها من عم مخيمر » . وعاد الى فراشه فوق الخيش القديم ، وأخذ يعد بضاعته من الأفيون ، وكان يدندن بأغنية : « يا بور قوللى رايح على فين .. » .. وأعد قطعة كبيرة وقال انه سيعطيها لمخيمر ليلين قلبه ويعطيه البنت عديلة .

١٠ ـ الحب .. خلف أسوار المدرسة :

إذا ما حدث
نذير خطير
حقيقي ..
فلنأخذ حذرنا

في أيام : ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ : من شـــهر نوفمبر عام ١٩٦٩ .. وصلت أفواج جديدة من أهالي السويس والاسماعيلية – ولا يعرف أحد على وجه التحديد ان كانوا قد جاءوا من هنـــاك مباشرة ، أم أنهم كانوا في معسكرات تهجير أخرى ثم نقلوا الى « البلد » ولقد أحدث وصولهم المفاجيء المزيد من الارتباك والازدحام ، فعقد الضابط وجدي اجتماعا طارئا في مكتبه .. دعا اليه الشيخ تهامي ، وفتوح أفندي ، و « أبله هدى » وانضم اليهم « أحمـــد عصفور » – وقد اختاره المهاجرون الجدد مندوبا عنهم ، لا لأنه أكبرهم سنا فقط ، وانما لأنه كان طبيبا محبوبا ومعروفا في السويس والاسماعيلية ،رغم أنه أحيل الى المعاش من سنتين :

.. طالت المناقشات ، واختلف المجتمعون ، ثم اتفقوا على أن يكونوا جميعا مسئولين عن رعاية المهاجرين القدامى والجدد ، واتفقوا على أن يكون « **أحمد عصفور** » رئيسا « **للجنـــة خدمة المهاجرين** » .

وتذكر **الشيخ تهامي** ، وتذكر **فتوح أفندي** ، وتذكرت «**هدى**» « **لجنة الخدمة** » التي كان « **الأولاد الثلاثة** » قد كونوها في البلد ، وتذكروا أن « **الأولاد** » **قد طالت غيبتهم في القلعة** .

سألت هدى :

ـ « الا يستطيع الضابط وجدى أن يحاول مرة أخرى اعادة الأولاد ؟ ..

كانوا يعرفون أن الضابط وجدى يحاول ، وأنه كان يفشل فى محاولاته لكنهم لم يعرفوا ما قيل له فى آخر مرة من الجهات العليا :

ـ اذا أثرت الأمر مرة أخرى فعليك ان تقدم استقالتك . . »

يومها .. لم يشأ أن يخبرهم بأمر هذه « النصيحة » انما قال لهم .. كما كان يقول دائما :

ـ « سأحاول مرة أخرى .. وربنا الموفق .. »

وكانوا يفهمون حرج موقفه ، وكان هو يعرف أن « الأولاد » صاروا فى ذهنه هو أيضا ، يعرف أنهم ـ ان حـــدث مرة ولم يتحدثوا عنهم صراحة معه كلما التقوا به ، فانما هم يفعلون ذلك خشية احراجه . لكنه هذه المرة أحس بأنه يريد أن يصارحهم بما قيل له ، لم يكن يحس بالخجل أمامهم ، كان قد اعتاد طيبتهم وعرف مقدار حبهم له ، فهم يأتمنونه على كثير من أسرارهم ، وهو يجاملهم بحفظ ماء وجوههم ، ويعاونهم على تخطى ما يحل بهم من كوارث او فضائح، مثلما فعل فى حادث مخيمر و بلطية، وكان يفعل ذلك عن اقتناع بأنه قد أصبح واحدا منهم دون أن يدرى . كانت زوجته «زينب هانم» تأخذ ابنتهما «سوسن» الصغيرة ، وتذهب لزيارة هدى والمهاجرات ، وقد أزالت هذه المودة كل كلفة بينه وبينهم ، وجعلته يشعر بأنه .. واحد من أهل البلد ، لذلك كله لم تفاجئه هدى بسؤالها .. وجد نفسه يصارحهم :

ـ « ثقوا .. انني اذا لم أعد الأولاد .. فسأستقيل .. »

وذعرت هدى ، وفوجىء الشيخ تهامى وفتوح أفندى ، ودهش

« **أحمد عصفور** » ، فهو لا يفهم عما يتحـــدثون ٠ لاحظ الضابط **وجدى** ذلك فأسرع يلخص له المسألة :

ـ « من حوالى عامين قبضوا على « وليد » نسيب الشـــيخ تهامى ، و « يوسف » خطيب هدى ، و « عصام » ابن فتـــوح أفندى ، وهم أصلا طلبة يدرسون فى الجامعة وكانوا يخدمون أهل البلد ويحلون مشاكلهم فى الغيط والدار ، لكن يبدو أنهم راحوا ضحية وشاية خسيسة ٠٠ أو سوء فهم ٠٠ » ٠

قال « أحمد العصفور » بروية سنوات عمره الطويلة :

ـ « خسارة كبيرة ٠٠ »

ثم سألهم :

ـ « يخيل الى أن هنـــاك من يلعب بذيله من وراء رئيس البلد ، بل أجزم بذلك ٠٠ لأننى انسان عاقل يمكن أن يرضى أو حتى يقبل أن تفقد البلد شبابها واحدا بعد الآخر دون جريمة مؤكدة ٠٠ »

قال الشيخ تهامى :

ـ « الأولاد أطهار ٠٠ »

قال فتوح أفندى :

ـ « كانوا يعملون ما يفيد الناس ٠٠ »

قالت هدى :

ـ « كانوا يكنسون شوارع البلد ليعلموا الناس أن النظافة سلوك وأسلوب حياة ، وكانوا فى الغيط يصلحون بين المزارعين ، وكانوا فى الجمعية يراجعون لهم حساباتهم وديونهم ٠٠ »

قال الضابط وجدى :

ـ « أقسم لى كثيرون من أهل البلد أن « الأولاد حالوا دون وقوع الطلاق فى أكثر من بيت ٠٠ »

فقال « **أحمد عصفور** » وقد احمر وجهه بفعل السن والتجربة الطويلة :

ـ « أقسم أنها وشاية ٠٠ »

قال الشيخ تهامى :

ـ « لهم رب يحميهم ٠ المهم الآن أن نجد مكانا للمهاجرين الجدد والا ناموا فى الشوارع ٠٠ »

ـ ملحوظة :

« تمكنت اللجنة ، بتعاون من أهل البلد ، من تدبير غرفة لكل أسرة أو أسرتين من المهاجرين الجدد فى بيوت الأهالى ، فقد أخلى أحدهم مندرته لأسرة ، وأخلى آخر غرفة عياله ، وكنس ثالث مخزن العلف وفرشه بالقش النظيف ، وقدم « مخيمر » غرفة المعاش فى داره لأسرة ذات عيال ، ودبر « فتوح أفندى » مكانا فى بيته لأسرتين ، وقدم « الشيخ تهامى » غرفتين من داره هما : « المندرة ، وحجرة حماته العجوز التى رحبت بأن تنام فى ركن من حوش الدار ، ورفضت أن تنام فى غرفة ابنها « وليد » بل أصرت على فتح هذه الغرفة التى ظلت مغلقة منذ ذهب الولد ، لتسكنها أسرة أو أسرتان من المهاجرين ، واحتج الولد خالد :

ـ « وخالى وليد ٠٠ » ٠

فقالت الجدة العجوز :

ـ « قد يطول غيابه ٠٠ »

ولا يذكر « خالد » أنه رأى جدته بكت بمثل هذا الحزن من قبل .

وفى ليل ذلك النهار ، هطلت أمطار الخريف وملأت أزقة البلد وشوارعها بالطين ، وقدم « عبده البورى » الكثير مما جمعه من الخيش القديم ليتغطى به من ليس لديه أغطية كافية من المهاجرين، وقدم مخزنه لمن يريد الاقامة معه ، لكن البلد كانت قد اتسعت للجميع .

* *

بعد يومين ، بعد أسبوعين ، فوجىء الضابط وجدى ، وفوجىء الشيخ تهامى وفتوح أفندى ، وأبله هدى ، وأحمد عصفور بالاستاذ « متولى عبد السلام » ناظر المدرسة الاعدادية يشكو :

– « فصول المدرسة لا تتسع لكل هؤلاء الطلبة والطالبات .. لابد من مدرسة جديدة ، لابد من مكان مستقل للبنات ، اننى لا أحتمل ما يحدث .. وما سيحدث .. »

وصمت الجميع ، كل منهم يفكر فى حل ، يبحث عن وسيلة .. أخيرا قال الشيخ تهامى :

– « أرض الجرن واسعة ، نبنى فى جزء منها مدرسة جديدة .. »

قال فتوح أفندى :

– « فكرة معقولة ، لكنها ستثير ثائرة العمدة .. » .

قال الشيخ تهامى :

– « لم يعد هو العمدة . انه يقيم فى البندر .. ولا يشغل

نفسه بالبلد . يمكن أن ناخذ داره أيضا .. فهى واسعة .. خالية من البنى آدمين .. »

قال الضابط وجدى :

ـ « **أسافر اليه وابحث ..** »

قاطعه الشيخ تهامى .

ـ « **ولم لاتحضرة الى هنا ورجله على رقبته .. اما كفاه انه سلم الأولاد للمباحث ونحن نيام ..** »

فقال الضابط وجدى :

ـ « **شهادة لله .. لقد عرفت أنه فعل الكثير لأجل الأولاد . اتصل بقريب له فى الجيش لكنه لم يفلح .. انه رجل طيب على كل حال ..** »

فوجىء الشيخ تهامى ، فوجئت أبله هـدى ، فوجىء فتوح أفندى . أنهم ماتوقعوا مساعدة العمدة لهم ، وقد ظنوا ـ بعد أن جاءت نقطة البوليس لتدير شئون البـلد أنه هجرها موتورا .. حاقدا ، ولاموا أنفسهم .. وصمتوا ..

قال الضابط وجدى :

ـ « **هه . أسافر له .. حتى لانرهقـه .. فهو مريض كما تعلمون . ثم اننا فى حاجة الى موافقته ، فالجرن ـ حسب علمى ـ من أملاكه ، والدار داره .**

وقال الشيخ تهامى :

ـ « **أسافر معك ..** »

● **ملحوظة :**

« رفض العمدة أن يتحول بيته المهجور الى مدرسة ، وقال ان أرض الجرن من حق أولاد أخيه وهم ورثة كثيرون ، وأنه فى حاجة الى وقت لاقناعهم ، ثم تنازل عن مخازن عزبته ، وقال انها تصلح مدرسة أو تنقلون اليها معسكر المهاجرين وتعيدون المدرسة الابتدائيه الى مكانها لتفسح المكان فى المدرسة الاعدادية لأبناء المهاجرين .. ولما حاول الشيخ تهامى ان يناقش معه أسباب رفضه تحويل بيته دارا للعلم قال له ان البيت باسم زوجتى ولا أملك التصرف فيه . وكاد يضيف انه قد عجز عن منحها اولادا طيلة حياته معها ومن ثم فهو لا يقدر على الضغط عليها ، ولما حاول الشيخ أن يذكره أن مخازن العزبة لاتصلح الا لخزين المحاصيل ، قال له بنبرة أسى واضحة « وأين هذه المحاصيل . ان للجمعية التعاونية مخازنها . وكذلك صار لكل مزارع مخزنه فى داره » وصمت .

* *

انتقل المهاجرون الى مخازن العمدة ، وأجروا بها بعض التعديلات فتحوا نوافذ للتهوية ، وعادت المدرسة الابتدائية الى مكانها القديم ، وظن الناس أن المشكلة انتهت ، وأمر « الأستاذ متولى عبد السلام » مدرسيه بالتشدد مع الطلبة والطالبات . وقال : **« ربنا يستر .. »** .

* *

وفى يوم الأحد ، وكان فى أوائل شهر فبراير ١٩٧٠ ، انفجرت فجأة مشكلة جديدة فى تفاصيلها وحجمها وشكلها ولونها على أهل البلد . وضحك الناس فى السوق والغيط ، ولام بعضهم الأستاذ متولى الناظر ، وسخر بعضهم من قلة عقل الجميع ، لكن الشيخ تهامى قال :

- « **ان ماحدث نذير خطر حقيقى ، فلنأخذ حذرنا ..** »

لقد حدث - لايدرى الأستاذ **متولى عبد السلام الناظر** كيف - أن ثارت ثائرته وفقد صبره ، وأحس بأنه قد صار - رغم أنفه - مسئولا عن لعبة سخيفة تتم فصولها كل يوم أمام عينيه فى المدرسة، فاستدعى « **أحمد عصفور** » بوصـــفه المسئول عن رعاية شـئون المهاجرين ، واستدعى الضـــابط **وجدى** ، **والشيخ تهامى** ، واعتذر **فتوح أفندى** لأن عنده مفتش المنطقة وقال انه ســيرسل « **أبله هدى** » لأنها تستطيع فهم الطالبات أكثر منهم جميعا .

عقد اجتماع عاجل فى مكتب **الأستاذ متولى** ، الذى فتح مكتبه بعصبية وأخرج منه كومة من الخطـابات المفتوحـة ، وضـعها أمام المجتمعين ، وصمت لحظة يستجمع أنفاسه المضـطربة ، ويحـاول السيطرة على أعصابه .. ثم قال :

- « **ياحضرات المحترمين . هذه مستندات الفضيحة** » .

قال أحمد عصفور :

- « **لاتهول فى الأمر يارجل .. انهم صبية صغار ..** »

فقال الناظر ، وقد انفلتت أعصابه :

- « **انهم شياطين . عفاريت . ان اعصابى طوال النهار والليل كالأوتار المشدودة على حديد ساخن . لقد جعلونى اتلفت حولى وأكلم نفسى حتى فى بيتى .. صدقونى . اننى وانا مع زوجتى واولادى اجـدنى اصرخ : عيب ياولد . عيب يا بنت . طولى الجـــونلة يامقصوفة الرقبة ، سافصل اى طالب لا يحترم زميلته ..** »

صمت الرجل . أخذ نفسا طويلا ، وعاد ينكش كومة الجوابات، وقال :

ـ « وها هى المشكلة برمتها امامكم . لقد لاحظت زيادة مريبة فى الخطابات الواردة للمدرسة . اننا فى العادة لاتصلنا غير المكاتبات الرسمية ، وأحيانا يصلنا خطاب أو خطابان للمدرسين ، أما الطلبة.. فأهاليهم فى البلد .. ولا احد منهم فى غربة ، حتى أبناء المهاجرين .. أهلهم هنا .. فمن أين تأتى هذه الجوابات » ؟

وأضاف ، بعد أن أشعل لنفسه وللضابط وجدى وأحمد عصفور السجائر :

ـ « رغم أنه من حقى أن افتح كل الجوابات لاطمئن على الأخلاق هنا ، الا أننى فى البداية قلت لأترك المسألة تمر بهدوء . لكن الذى أثارنى أن أحد المدرسين صارحنى انه وصلته رسالة من طالبة تحدد له موعدا للقاء عند الساقية ـ واشار بيده عبر النافذة المغلقة المطلة على الترعة القريبة ـ وقال لى المدرس انه يخشى من المضاعفات فهو زوج وأب لأطفال ، وبعده بقليل جاءنى مدرس اللغة الانجليزية ، وقال انه فوجىء وهو يصحح الكراسات فى بيته بخطاب فى احداها ، وقد أرتبك لأن زوجته تعاونه أحيانا فى تصحيح الكراسات .. »

صمت الناظر لحظة .. يتأمل وجوه المجتمعين حوله ، ثم قال :

ـ « تصوروا ، حضراتكم ، مايمكن أن يحدث لو رأت زوجته هذا الخطاب ، هى متعلمة صحيح ، لكنها زوجة قبل كل شىء .. المهم أننى اضطررت بعد ذلك أن أراقب الجوابات بنفسى ، فماذا وجدت ياحضرات ؟ .. هاهى أمامكم .. اقرأوها لتعرفوا أى كارثة حلت فوق رأسى أنا .. »

* *

فتح المجتمعون الخطابات .. وقرأوا بذهول :

ـ « أستاذى الحبيب م . ن . طالما أنا لا أستطيع الحصول على

قلبك القاسي .. فأنا مسكينة . لماذا تعاند قلبى يا .. ومع ذلك أنا أعتقد الآن أنه يجب أن تزكيه وتشجعه على الاحســاس بحبى حيث أنني ـ كلمة مشطوبة ـ العثور على مثل قلبك يا حبيبى .. »

((المخلصة للأبد عفت))

**

على ظهر كارت بوستال لعاشقين عاريين تماما ، كانت هذه الرسالة : «مدرستى الحبيبة ـ تقصد مدرسها طبعا ـ أين عطفك على . لماذا مزقت صورتى و .. » كلمة مشطوبة .. بكيت من قلبى الجريح عندما وجدتنى ممزقة باصابعك القاسية فى كراسة الانشاء . سطر كامل نشطبه حرصا على الحياء العام ـ أنا أحبك وحبك نار يا حبيبى .. ـ

((حبيبتك د ..))

**

« .. روح قلبى . حياتى . من بعد الأشواق . » الى آخـر أغنية عبد الحليم حافظ الشهيرة ـ ثم جملة حبرها سايح من الدموع « لكن الحب يا ظالمنى مثل سر غامض . غامض جدا جدا » لا أعرف سر بيره العميق .. لأنى أعتقد ان العلاقة يمكن أن .. اننى اخاف من نظراتك واعشق عينيك الواضح فيها الف معنى . أنت لاتفارق خيالى كل ليلة وأنا فى الفراش حيث .... » تلميذتك الولهانه ف .

**

« .. وصـــدقنى يا حبيبى .. ياحبيب العمر . أنا الحب . الحب امرأة .. يا أول من أحب قلبى . انت الحب . انت عمرى . أنا فاكرة اليوم .. الأسبوع .. الساعة . اللحظة التى أخذتنى فيها بين ذراعيك و .. ياسلام على طعم قبلات الحب . على فكرة أول مرة أعرف فيها أن الدرس الخصوصى له طعم جميل ساحر يا شقى

.. أنا وأنت .. الحب عمر تانى .. الموت .. مسرورة فاهــم .
« العاشقة ن »

* *

« حبيب حياتى . فى أذنى كلامك كالعسل .. أنت حلوة .. حلوة .. الحب . الحب . قلبى أول مرة يحب . لازم . لازم . لازم .. يوم الاتنين .. سلامى . الى اللقاء .. »

ـ اختك كمال عبد الهادى

* *

قال الناظر فجأة :

ـ « كلها أسماء وهمية ، انا اعرف مكر البنات وخبثهن . لكن الداهية الكبرى أن هذا يحدث كل يوم . أصبح عادة مرعبة . وأنا أسألكم : أين أنا ؟ .. اننى احس باننى ناظر مدرسة للحب والجنس ولا أقول بيتا سريا .. البنات فى سن المراهقة ، والأولاد كذلك .. اننى أراهم كالديوك تكاكى أمام البنات . والبنات فى هذه السن الخطرة فخورات بمشاجرات الأولاد بسببهن ، والفوز بابتسامة أو غمزة عين خبيثة ..

انني ياحضرات الأفاضل مصـــمم على نقل نفسي من هنا .. لأننى لا أحتمل أن أكون على آخر الزمن طرطورا .. وسط هؤلاء المفاعيص ..

فسألته هدى :

ـ « هل لاحظت أن المدرسة فى حاجة الى مشرفة اجتمـاعية ترعى البنات . لماذا لاتطلب مشرفة أو مدرسة .. ان وجود امرأة عاقلة هنا يســاعد على فهم المشــكلة وحلها » . نظر اليهـا الجميع

باعجاب ، لقد فاتتهم هذه الملاحظة ، لكن الناظر قال وهو يقدم أدلته :

ـ « هذه عشرون جوابا ‥ وعشرون ردا ، ومازالت المكاتبات مستمرة بيني وبين المنطقة ‥ ولا فائدة ‥ »

قال الشيخ تهامي :

ـ « أرى أن ينتبه مدرسو الدين ، وأن يتشددوا مع الأولاد والبنات ‥ »

قال أحمد عصفور :

ـ « البنات معذورات ، فقد اعتدن الحياة في بور سعيد والاسماعيلية والسويس ‥ »

قال الضابط وجدي :

ـ « علينا أن نجعلهن يعرفن أنهن في بلد ريفي ‥ لها تقاليدها وظروفها ‥ » .

قال الناظر :

ـ « في كل صباح أقف بين الطوابير وأقول : « **اننا في ظروف حرب ، ولابد أن نتمسك بالفضيلة والأخلاق الحميدة ، وأن من يفرط في كرامته ولو بنظرة لاحياء فيها لا يكون رجلا أو بنتا تستحق منا الاحترام ‥ لكن الذى يحدث يا حضرات ‥ أن الجميع لايكفون عن الهمس والغمز ‥ من وراء ظهري ‥ ان الأمر لا يطاق ‥ »**

سألته هدى :

ـ « والحل في رأيك يا أستاذ متولي ‥ ؟ » .

ـ « **أولا : لابد من انشاء مدرسة خاصة للبنات فورا ٠٠** »

قاطعه الضابط وجدى :

ـ « **اننا فى ظروف صعبة ولا يمكن أن نرهق الميزانية بتكاليف بناء مدرسة أخرى ٠**

قال أحمد عصفور وهو يشبك أصابعه المترهلة فى حمالة بنطلونه :

ـ « **كلنا نحتمل ٠٠ ولابد أن تحتمل ياحضرة الناظر ٠٠** »

فقاطعه الناظر ، وقد نسى قائمة الحلول التى رتبها فى ذهنه فى : أولا ، ثانيا ، ثالثا ، رابعا ـ وقال بعصبية زائدة :

ـ **أنا أحتمل ٠٠ لكن البلد ٠٠ لن تحتمل ما سيحدث من مضاعفات ٠** »

قال الشيخ تهامى مواسيا ومشجعا :

ـ « **فاصبر كما صبر أولو العزم ٠٠** » ٠

ثم أضاف :

ـ « **ربنا افرغ علينا صبرا وثبت اقدامنا ٠٠** »

قالت هدى فى سرها : « **لو أن يوسف كان هنا لوجد حلا معقولا هو وصديقاه ٠٠** » ٠

ثم تاهت لحظة مع ذكرى حلوة ، استيقظت دون أن تدرى فى أعماقها ، يوم كان يكتب لها رسائل حب مثل هذه الرسائل التى قرأتها ومازالت تمسك بها كانت تكتب له صفحات ليس فيها غير كلمة : « **أحبك يا يوسف ٠ أحبك ٠٠** » وكانت تقول له بعد أن خطبها انها لا تجد الكلام الذى يعبر عن شوقها له ليل نهار ٠٠

ما لبثت أن تنهدت وهى تتذكر للمرة الألف .. المليون .. أن غياب الأولاد قد طال . حاولت أن تنشغل بشىء ، فعادت تقلب الجوابات فى يديها .

قال أحمد عصفور :

– « من جهتى سأتكلم مع أولياء الأمور من المهاجرين ، سأمر عليهم واحدا واحدا ، رجلا ومرأة . وأطلب منهم تحـــذير بناتهم وأولادهم .. »

وقال الشيخ تهامى :

– وسأحدث أهل البلد فى صلاة الجمعة وأجعلهم يقفون معنا فى هذه المشكلة .. »

وقالت هدى :

– « أرى أن يسمح لى الأســتاذ متولى أن ألتقى بالبنات فى ندوة .. ليكن غدا مثلا .. »

ووافق الناظر وقال :

– « منذ زمن لم نعقد ندوات للأسف ! »

وتذكر آخر ندوة أقامها فى نادى المدرســـة ودعا اليها وليد وعصام ويوسف ، ومال على الضابط وجدى وسأله :

– « أما من خبر عن الأولاد .. ؟ »

فقال :

– « ثق أنهم سيعودون باذن الله .. »

وانصرفوا يلفهم الصمت الملىء بالترقب والقلق .

* **ملحوظة : « في اليوم التالي ، وكان أحد أيام شتاء فبراير عام ١٩٧٠ ، فوجئ الجميع بأن طلبة ٣ ــ ٣ اعدادى قد اعتصموا بالفصل ، ومنعوا البنات من الخروج فصرخن مرعوبات ٠٠ وكسر الأولاد مقاعدهم ومزقوا كراساتهم وكتبهم وأمسكوا بزميل لهم يدعى « وحيد » وأشبعوه ضربا حتى أسالوا دماءه ٠٠ ثم أوقفوه فى ركن الفصل وبجواره أجبروا زميلتهم « ف ٠٠ » على الوقوف بجواره . وأصروا على حضور الناظر شخصيا اليهم ليرى المهزلة البشعة ، والفضيحة التى جعلتهم جميعا كالطراطير فى الفصل ٠٠**

بعد ربع ساعة ٠٠ نصف ساعة ، لا شيء محدد فى ذاكرة الناس تمكنت « **أبله هدى** » **والشيخ تهامى وأحمد عصفور** ، من اقناع الأولاد بفتح باب الفصل وبلا خوف من الضابط **وجدى** أو الناظر ، وجلس الأولاد فى أماكنهم المهشمة ، لتتم المناقشة فى هدوء ٠

لكن المناقشة لم يقدر لها أن تتم اطلاقا ، اذ صاح أكبر تلاميد الفصل سنا وأضخمهم جسما ، وأعلن النبأ المهين :

ــ « هذه البنت ال ٠٠٠ اهدت دبلة من الفضة لهذا الولد ال ٠٠٠٠ هكذا أمامنا دون حياء أو خجل أولاد ال ٠٠٠٠ »

ازداد ذعر الولد والبنت ٠٠ فبكيا ٠٠ واعترفا بالواقعة دون اجبار ، فبهت الشيخ تهامى وفتوح أفندى ــ الذى وصل متأخرا ٠٠ وأدهشهما أن **أحمد عصفور وهدى والضابط وجدى** قد تقبلوا المسألة بهدوء وبساطة ، وسادت تعليقات الأولاد والبنات وامتلأ الفصل بالضجيج ، وفجأة صرخ الناظر :

ــ « انكتموا ياكلاب ٠٠ »

ثم طاح فى الجميع بعصاته الطويلة التى أخرجها من تحت

حزام البنطلون ، وانخرس الأولاد وبكت البنات دون صـوت ..
وبعد ثوان قليـلة كان الناظر أمام المتهمين يحدق فيهمـا بنظراته الخارقة وود لو شرب من دمائهما .. لكنه قال بحسم :

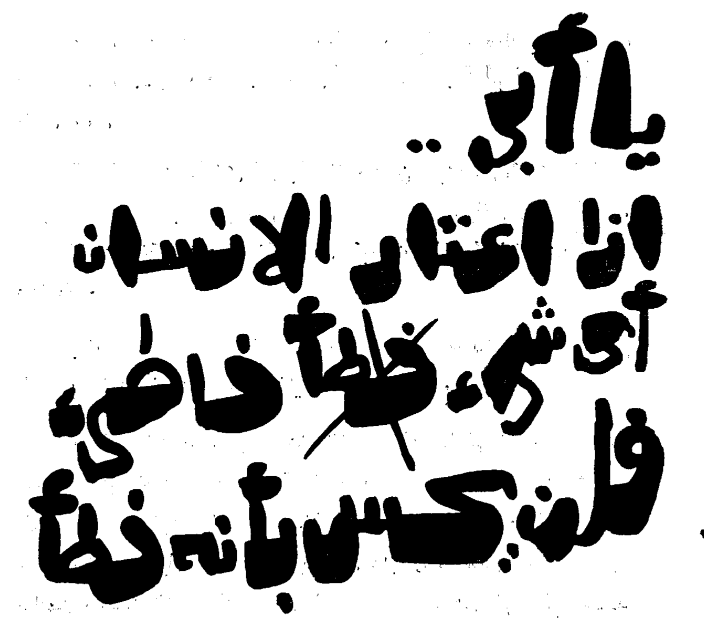
– « على البيت .. فصل نهائي يا كلب انت وهي .. » .

*** ***

مر اليوم وللمسألة ذيول طويلة ومثيرة مضحكة ومحزنة .. وعم الاحساس بالخوف مما تخبئه الأيام القادمة ، فازداد حذر الناس في البلد ، وخشنت معاملاتهم وتباغضوا دون قصد منهم .



١١ ـ تحقيق صحفي مثير :



.. « سمعت . دهشت . سألت . عرفت . سافرت . رأيت أن « المينى جيب » ، ودبلة الخطبة ، أثارا زوبعة لم تهدأ بعد فى البلد .. »

تململ فتوح أفندى فى جلسته ، ركن كوعه الى المسند خلفه ، نظر الى نور اللمبة المرتعش ، ولعن عطوة الكهربائى ولعن أباه ، لأنه لا يرعى الله ويوصل النور الى البيوت خلال أسلاك قديمة .. وعارية .

بعد لحظة .. عاد فتوح أفندى يكمل قراءة التحقيق الصحفى الذى وصفته الجريدة بأنه « غاية فى الاثارة » .

« ناظر المدرسة يصر على الاستقالة اذا لم توافق الجهات المسئولة على نقله الى مدرسة أخرى فى بلد آخر .. لجنة شئون المهاجرين فى اجتماعات متصلة لبحث المشكلة .. أهل البلد ينقسمون فى الرأى .. لكنهم يتفقون على أن « المينى جيب » جعل بناتهن يلبسن الثياب أقصر من اللازم لأن أحدا فى البلد لم يعد يعرف بنات الفلاحين من بنات المهاجرين ..

« اختفاء الحياء فجأة من البلد .. »

ان الجنس يبدو واضحا فى سلوك الجميع ، والشـــهوة تطغى على كل التصرفات . من قبل ماتت فلاحة أسمها « وجيدة » ضحية شوقها للرجل ، وقيل ان الذى قتلها هو والدها محمود رمضـــان الذى قيل انه اشتهاها .. وقيل ان ... »

. . . .

. . . .

ترك فتوح أفندى الجريدة ، وقال لنفسه :

ـ « ابنى عصام .. مع انه كان فى سنة أولى آداب .. كان يفكر ويكتب أحسن من هذا الصحفى ألف مرة .. »

واشتد حنين الرجل لابنه ، فقـــام الى مكتبه وأخرج بعض صوره ، وراح يتأملها بعينين تملأهما دموع القهر ، وغمغم :

ـ « حتى لو كان لى أبناء غيرك يا عصام لما شعرت بالعزاء .. فأنت توأم شبابى .. ورفيق طريقى فى هذه الدنيا .. »

.. وحمد لزوجته موتها المبكر ، والا لزادت من شقائه بقلقها وحزنها على وحيد العمر : عصام .

لقد حرص فتوح أفندى ، منذ بلغ **عصام** الرابعة من عمره أن يصحبه معه الى المدرسة . كان فتوح أيامها لا يزال مدرسا ، وكان يجلس عصام فى الصف الأمامى ، وسط التلاميذ ، وكان الشيخ تهامي يقول له : « الولد صغير .. أرســله لى في الكتاب ليحفظ القرآن .. لكن فتوح أفندى كان متعلقا بعصام ، يخاف عليه من الهواء الطائر ، وكانت أم فتوح أفندي ـ رحمها الله ـ تلومه على ذلك ، وتقول له : « دع الولد يعتاد الابتعاد عنك والا فسد » .

فكان يداعبها ويغالطها ويقول : « **أنا أعرف فى هذه المسألة أكثر منك يا أمى ..** »

وفى مرات أخرى كانت أمه تلح عليه : « يافتوح .. دع لى الولد أرعاه .. وتزوج أنت .. لتسعد نفسك » .

وكان فتوح أفندى يغالط أيضا وهو يقول لها :

– « ليست لى رغبة فى الزواج مرة أخرى .. »

وكان حنينه للنساء يؤرقه .. لكنه لم يشـأ أن يغامر مرة أخرى ويحب ، بعد أن اعتاد ان يحب زوجته الراحلة وحـدها .. لكنه كان – سرا – يسافر الى المركز أو المحافظة ، ليبيت ليلة او ليلتين فى أحد البيوت السرية لينعم بلقـاء احدى النساء مقـابل عدة جنيهات .

. . . .

وكبر **عصام** ، وسبق عمره وأقرانه **فى المدراسـة ، وأحس** الرجل بميل ابنه الى القراءة ، فكان **يشترى له مجلات السندباد** ، ثم مجلات الكبار ثم .. اعتاد **عصام أن** يلتهم مافى مكتبة والده من كتب ، **قرأ النظرات والعبرات وبكى** مع المنفلوطى من أجل الفقراء والمساكين ، وأحب فروسية **أبوزيد الهلالى والجازية ودياب والزناتى خليفة .. ولكنه فجأة كره سيرة الهلالية** ، لأنه فى احدى الأمسيات حضر مرحا فى البـلد ، وكان « **الشـاعر أبو ربابة** » ينشد سـيرة الهلالية ، ويروى كيف وقع « دياب » فى الأسر ، فثار أحد الفلاحين وأصر على أن يخرجه الشاعر فورا من الأسر والا « جعلها ليلة ضلمة» .. وارتفعت الشماريخ وكادت تقع عاركة دامية بين أنصار أبو زيد.

ودياب ، وأراد الشاعر أن يكسب من الشجار ، فقال : « **طلوع دياب من الأسر ليس سهلا ‥ » لكن أنصار دياب أصروا** ‥ فقال بمكر : « **اذا سجن أحدكم ‥ كيف يخرج من السجن ‥ ؟** » .

فقال أحدهم :

– « **بالكفالة ‥ أو بالضمان ‥** »

وكان أشد المتعصبين لدياب ، « **عم ياسين** » الذى قيل انه فقد عقله على أثر وفاة زوجته فى سن الشيخوخة وتركته وحيدا فى الدنيا ‥ المهم أن « عم ياسين » **قال للشاعر أنه على استعداد لأن يطلب من العمدة أن يضمن دياب ليخرج من الأسر ، ولما قيل له** [illegible] وقد تحول الفرح الى سامر يتسلى بعم ياسين – ان العمدة سيحبسه فى الدوار ان هو ذهب اليه ، فأقسم للجميع بالطلاق أنه سيخرج بنفسه « دياب » من الأسر ، **ويجعل أبوزيد والزناتى يعلمان أن** دياب ليس هفية وأن وراءه رجالا أشداء ‥ وهرول عم ياسين وباع جاموسته وحماره وعاد بالمال الى السامر ليدفع كفالة [illegible] دياب .. **وعندما اكتشف آخر الأمر انه كان « مسخرة للجميع »** **سقط ميتا .**

ويومها كره **عصام** هذه القسوة ، وأدرك منذ صغره أن المهانة قاتلة ‥ **فأحب كل مايقدس كرامة الانسان ‥ وكان أن ازداد** تعلقا بكتب الأدب الرفيع لطه حسين والعقاد ‥ وغيرهما

وأحس **فتوح أفندى** بنضوج **عصام** [illegible] انزعج فى البداية ، لكنه اعتادها ، ولم [illegible] عصام فى هذه الآراء .. وقــد [illegible] وسرعان ما يعقل ويكف عن كل [illegible]

وكان اذا شكى له العمدة من أن « **عصام** » يحرض [illegible] على الاضراب احتجاجا على ضآلة [illegible] كان فتوح [illegible]

ويقول للعمدة مداعبا : « **لا تشغل بالك** ٠٠ انه ولد طيب وسيعقل عندما يكبر٠٠» لكنه سرعان ما أحس بأن ابنه على حق ، وذلك عندما احتدمت بينهما المناقشة ذات ليلة ، وقال عصام :

ـ « ياأبى ٠٠ المشكلة أنك وكل البلد ، قد أعتدتم هذا الوضع٠٠واذا اعتاد الانسان أى شيء خاطىء فلن يحس بأنه خطأ٠»

واعترف الرجل لابنه بأنه على حق فى كل ما قاله ، لكنه أضاف :

ـ « على العموم هذه المسائل ليست من اختصاصنا نحن يا عصام ٠٠ هناك حكومة فى البلد وهى المسئولة ٠٠ »

فقال عصام :

ـ « وهل نجلس نحن فى مقاعد المتفرجين ٠٠ ؟ » ٠

وعندما ضيق عصام الخناق على والده ، اضطر الرجل أن يحكى لابنه ما كان يخفيه عنه ٠٠ قال :

ـ « كنت فى السنة الأولى بمدرسة المعلمين ، لايشغلنى غير أن أكون مدرسا ابتدائيا ٠٠ لى مرتب ، ويقال لى « فتوح أفندى » وكان جدك قد مات ٠٠ وترك لى ولجدتك قطعة أرض صغيرة ٠٠ وأحسست بأننى صرت حرا ٠٠ بوفاة أبى ، فانطلقت أمرح وألهو وعرفت الكثير من ألوان العبث والاستهتار مع بعض رفاق السوء ، ثم ٠٠ حدثنى أحد الزملاء فى شأن الانضمام الى أحد الأحزاب ٠٠ **وكانت مصر ياولدى فى ذلك الزمن ، مسرحا لصراعات لا تخطر على بالك من الأحزاب ٠٠ حتى هتلر كان هناك من يتعصبون له فى مصر ، و ٠٠ المهم ٠٠ وجدت نفسى مشتركا فى احدى المظاهرات و ٠٠ لأننى أساسا كنت غير مقتنع بشىء ، فقد ارتبكت عندما جاء البوليس وضربنا ، ووجدت نفسى فى سجن المديرية و ٠٠ ضربونى**

ضربا مبرحا .. ومن يومها يا عصام وانا اتحاشى كل شيء من شأنه أن يعيدنى الى السجن والضرب .. »

صمت **فتوح أفنـدى** ، ولكنه فوجىء بعصـام يعانقه ويقبله و .. قال له يومها :

ـ تعرف يا أبى أنه ليس عيبا أن نخاف .. الخوف هو ...

وتذكر بصعوبة ما قرأه عن الخوف وأضاف :

ـ « شيء غريزى فى الانسان .. لكن المهم ألا يكون ذلك قيدا على حركة الانسان . يجب ألا نعتاد الخوف .. و .. » .

أنهى عصام حديثه لأبيه بجملة قرأها فى أحد الـكتب التى أعجبته :

ـ « ان مواجهة الانسان للخوف تكون اما بالدفاع أو بالهروب، وهما وسيلتان لاحتفاظ الانسان بأمنه وحياته وحياة جنسه البشرى .. فى رأيى يا أبى أن الدفاع أحسن من الهروب ، بل انني أرى أن الهجوم على اسباب الخوف هو أحسن وسيلة للدفاع عن أنفسنا وحريتنا ضد الخوف .. »

. . . .

. . . .

ودخل **عصام** الجامعة . وازداد قلق فتوح أفندى عليه .. كان يزوره كثيرا .. واطمأن باله عندما رآه منشغلا بالقراءة .. وفرح به عندما قال له :

ـ « أريد أن أكون صحفيا .. وكاتبا .. يا أبى .. »

فسأله متضاحكا :

- « **مثل مصطفى كامل .. ؟** »

يومها .. ومازال الرجل يذكر كلمات ابنه الذى قال :

- « **مصطفى كامل كان يعيش فى ظروف جعلت منه زعيما وهو أصغر منى فى السن يا أبى .. اما أنا وجيلى .. فنعيش ظروفا مختلفة .. أقصد صعبة .. وعلينا أن نبنى أنفسنا جيدا . وأن نستعد ..** »

يومها لم يعلق **فتوح أفندى** بشىء .. انشغل بصحة ابنه ، وقد اكتشف أنه ازداد نحولا وشحوبا .. وملأ القلق عينيه اللتين يشوب بياضهما احمرار ظاهر ، فسأله ان كان مريضا ، فقال عصام :

- « **أبدا .. انه فقط انشغالى بالدروس .. والبحث عن شىء ينقصنى ..** » .

فسأله :

- « **أى شىء هذا الذى ينقصك ياولدى ؟ ..** »

قال عصام ، شاردا :

- « **لا أعرف يا أبى . انه مازال هلاميا فى رأسى . غير محدد الملامح .. لكننى واثق من أننى سأجده .. سأعرف كنهه .. وبشكل محدد .. لكن متى ؟! .. لا أعرف .. اننى فقط أحس به فى داخلى .. لكنه على أية حال يتخلق ويتشكل وان يفعل ذلك ببطء الجنين .. ولا بد من أن أرعى هذا الجنين ليكبر .. وينمو .. وعندئذ أثق باننى سأعرف ماذا اريد فى هذه الحياة ..** »

انزعج **فتوح أفندى** .. وقد أدرك أن **عصام** لم يهدأ ببلوغه سن الرشد كما تنبأ .. وانما ازداد قلقا وضيقا ، وانقبض

قلبه وحدث نفسه بأن « عصام » سيواجه متاعب كان يتمنى من صميم قلبه أن يجنبه اياها ٠٠ وحسما للصمت الذى سادهما فى ذلك اليوم ، اقترح عليه أن يصحبه ليشترى له نظارة طبية ففرح عصام ٠٠

و ٠٠٠

أخذ **فتوح أفندى** يقلب فى أوراق ابنه ٠ فيما تبقى من هذه الأوراق بمعنى أدق ٠٠ فقـد بعثرها **رجال المباحث** يوم جاءوا فى تلك الليلة السوداء ٠ وتحت عنوان قراءات فى «لوك وآدم سميث» احتوته كلمات ابنه ٠٠ سمع فيها نبرة صوته ٠٠ لثغة لسانه فى حرف « السين » ٠٠

ـ « ٠٠ ولكن اذا كان المفكرون هم الذين يعبرون عن مطالب الجماهير وآمالها ، فليسوا هم الذين يشعلون الثورات ٠٠ ان عليهم أن يمهدوا لها حين يبينون للجماهير ما هم فيه من غبن أو ماهم عليه من ضلال ، الا أن الطغيـان قد يحول بينهم وبين حرية التعبير ، فيئد أفكارهم أو يقضى عليها قبل أن تطغى ، باتاحة الفرصـة على اوسع نطاق لكتاب الأفكار الترويجية المؤيدة للمضللين ، و ٠٠٠٠ ٠٠٠٠٠٠٠٠ وسيظل العامل الأساسى فى اشعال الثورات هو : حوافز الجماهير الجماعية ، وعلينا أن نعمل دائما على أن يتم صهر هذه الحوافز وبلورتها ٠٠ وعندئذ فلن يكون الطاغية الفرد ٠٠ ولا الطغاة مجتمعين بقادرين على قمع ثورة الجماهير وحين ٠٠٠٠٠٠ ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠

بحث فتوح أفندى كثيرا بين الأوراق عن بقية هذه الورقة ، وقد أحس برغبة جارفة فى استكمال رأى ابنـه ٠٠ لكنه وجـد قصاصـة أخرى تحت عنـوان : « **درس مسـتفاد من الثـورة**

الفرنسية والثورة الروسية وثورة مصر » قراءات فى « النجار »
وليس لأية سلطة أن تقرر ما ينفع الانسان الا بالاقناع والمناقشة الديمقراطية، فاذا تحقق **الرضا والاقتناع، فللسلطة انتقرر ما لها وما للأفراد .. ولكن اذا تبين للجماهير أن الانحراف سيسود باسم الرضاء والاقتناع ، فان عليهم أن يرفضوا انحراف السلطة وأن يقوموها .. ويجب ألا يغيب عنـــا أبدا أن للجمـاهير على الدوام هذا الحق .. فى حماية مصالحهم ومصالح وطنهم مهما كانت ... . ومهما اختلفت الآراء فى أساليب مقاومة الشعب للسلطة المنحرفة ، فاننا لا يمـكن أن نحرم القوة والعنف ، فهما سلاح من حق الجماهير اللجوء اليهما اذا كان الجانب الآخر قد أباح لنفسه استعمالهما لقمع . . . .**

أحس **فتوح افندى** بالخجل ، انه يجهـل أشـياء كثيرة .. لا يستطيع أن يتابع آراء ابنه .. انه كان يجب أن يكون حريصا على مناقشة ابنه فى كل آرائه ، كان عليه أن يقرأ مثله .. ليكون معه فى أحلامه .. وطموحه .. وربما كان استطاع أن يمنعه من الاعتقال ، أو على الأقل يكون مقتنعا عن يقين بالآراء التى ادخلت ابنه السجن ..

جلس الرجل متعبا . أحس بوطأة الشقاء والقهر ، وشعر بثقل الخمسين عاما التى عاشها يعمل ويعمل من أجل نفسه فقط حارما قلبه حتى من الحب ، حتى بنى حياته كما يرى ، ويحلم .. واشترى عدة أفدنة أخرى ضمها الى ارث والده ، وعندئذ بدأ يحب .. فتزوج أم عصام التى شاء الله أن يأخذها الى رحابه لحظة ميلاد عصـــام .. فاستسلم لحظة ، وعاد يواصل عمله .. فى تدريس الحساب والقراءة الرشيدة لأولاد البلد ..

ظل ألف ألف مرة يعيد في شرح : وزن ·· أخذ ·· أكل ·· سرق ·· زرع ·· ، ثم جرب أن يعلمهم : « شرشر نط ·· فلفل بط ·· » ، ولم تعجبه هذه « الطريقة » التي قالوا انها « وسيلة حديثة للتعليم » ، وقال هو ــ لنفسه ــ انها « طريقة عقيمة ، ستخرج لمصر جيلا من الجهلة والأميين » ، لكنه لم يشأ أن يعلن رأيه هذا ، رغم أنه قد وصله خطاب رسمي من التربية والتعليم يطلب ملاحظاته وملاحظات مدرسي مدرسته على طريقة « شرشر » · كل ما فعله يومها أنه كتب محبذا رأي المسئولين وصواب تفكيرهم السديد·· وعندما جرؤ أحد المدرسين على مخالفته الرأي ، قال له :

ــ « **لاتكن غبيا ياولدى ·· انت مدرس ناشىء لاتفهم فى هذه الأمور · انهم طالما قد قرروا شيئا ·· فلابد أن توافقهم عليه ·· لا أن تعارضه ·· أفهم ياولدى ·· انها مسالة كما ترى لها قواعد وأصول** ·· » ·

لن ينسى فتوح أفندى نظرات ذلك المدرس ، الذى وقف أمام **فتوح افندى** باذلا جهدا كبيرا حتى لايضربه ، ثم خرج من حجرته ، وظل يعمل صامتا سنة كاملة حتى اختفى من المدرسة وقيل بعد ذلك انه أعير مع غيره الى احدى الدول الشقيقة ، وقيل انه سجن بتهمة تدخين المخدرات ، وقيل انه قد لفقت له تهمة هتك عرض احدى الفلاحات و ···

لقد غضب **عصام** من أبيه ، وقال يومها انه كان يجب أن ترفض ما تراه خطأ ·· يومها أنهى فتوح أفندى الحديث مع ابنه عصام ، وكان قد بدأ يخاف من آرائه ، كان يراه بيقين الأب مقبلا على أيام عصيبة باندفاعه وحماسه ، وحاول مرة أن يبصره ، فقال له عصام :

ــ « **انت شديد الخوف يا أبى ··** »

قال :

ـ « **ألا تريدنى رجلا له قيمة ٠٠ ؟** »

ـ « **ادفع عمرى كله من أجلك ٠٠** »

ـ « **بل عمرى وعمرك يا أبى هما الهدف والغاية ، وان نجعل حياتنا هدفا نبيلا ، هو أن يكون لعمرنا قيمة يا أبى ٠٠** »

ـ « **أخاف عليـــك ٠٠** »

ـ « **لا أفعل شيئا خاطئا ٠٠** »

. . . .

كان « عصام » قد أخبر والده ، أنه قد كون مع صـــديقيه « **وليد** » و « **يوسف** » ، **لجنة لخدمة البيئة ، لمحاولة حل مشـــاكل البلد ،** فارتعب فتوح أفندى ، وقال :

ـ « **لا ترم بنفسك فى التهلكة يا عصام ٠٠** » ٠

فأراه عصام خطاب الجامعة ، الذى تطلب فيه من المسئولين مساعدته هو وزميليه على تشكيل هذه اللجنة التى تنبثق من مشروع الجامعة لخدمة وتطوير البيئة ٠

يومها اطمأن قلب فتوح أفندى ، وتوقع أن يكون لعصام شأن وأى شأن لو أنه ظل محافظا على الهدوء ولم يعرض نفسه للمساءلة والعقاب ٠٠

وكبرت احلام الرجل ٠٠ رأى ابنه صحفيا كبيرا ٠٠ رآه عضوا بارزا فى مجلس الأمة ٠٠ رآه مذيعا يخاطب الملايين ٠٠ رآه يعلى رأس أبيه ويجعله يمشى فى البلد متباهيا ٠٠ رآه يحصل له على الترقيات والدرجات التى ضاعت عليه ويعيد اليه أقدميته ويجعله

مراقبا عاما للمنطقة أو كبيرا للمفتشين ان لم يجعله بجرة قلم وكيلا لوزارة التربية والتعليم ‥ رآه عائلته وسنده فى الدنيا ‥

ـ « آه ‥ من عيلة من ‥ فى البلد ‥ » .

عندما عين مدرسا ابتدائيا فى الصعيد ، سعى الى أحد الكبار ـ الذى كان له أصل فى البلد ـ لينقله الى بلده ‥ فلم يكن يحتمل الاغتراب عنها لأسباب مادية ، لأنه يجب أن يكون الى جوار أمه العجوز .

يومها سأله ذلك الكبير :

ـ ((آه ‥ من عيلة من ‥ فى البلد ‥))

ارتبك فتوح أفندى يومها وقال بخجل شديد :

ـ ((أبى رحمه الله . كان أجيرا فى عزبتكم ، ثم فتح الله عليه واشترى فدانين ‥ بشقى العمر وبمساعدة والدكم المغفور له ‥)) .

ان فتوح أفندى لاينسى نظرات ذلك الرجل اليه ‥ كان كأنه يتهمه بأنه ابن رجل سرق من مال العزبة ‥ والا فكيف اشترى فدانين ؟! ‥

وهتف :

ـ « أنا الآن ‥ أبو عصام يا بلد ‥ »

أجهش الرجل بالبكاء ‥ سالت دموعه على قصاصات الورق على مكتب ابنه ‥ بللت صورة عصام ‥ وازداد احساس الرجل بفداحة الخسارة التى منى بها ، ملأه الغضب ، لكن احساسه بالعجز كان أقوى ‥ كان عاتيا ‥ فتشبث ببقايا أوراق ابنه وحاول ‥ حاول بصدق ‥ بنية خالصة ، أن يعرف فضيلة الصبر ‥ لكن عينيه وقعتا ـ برغمه ـ على التحقيق الصحفى المثير ، فالتقط الجريدة ‥ وقرأ العناوين الساخنة :

- في التحقيق التالي ـ غدا ـ ستعرف :
- سر الدبلة الفضية التي فجرت الزوبعة ٠
- خطابات غرامية في كراسات المدرسين ٠
- المواعيد الغرامية عند الساقية ٠٠ بجوار المدرسة ٠
- لجنة الحكماء تفشل في حل المشكلة ٠٠٠

٠٠٠٠٠

هز فتوح افندى رأسه ، ازداد يقينا بأن هذه الكلمات المثيرة تجرحه هو ٠٠ توقظ كل جراحه ٠٠ قال بغضب :

ـ « انه اعلان للفضيحة ٠٠ صارت سيرتنا على كل لسان ٠٠ »

وأقسم لنفسه ٠

ـ « لو أن عصام موجود الآن ٠٠ لأخرس هذا الذى تطـــوع بنشر الفضيحة على الملأ ٠٠ فولدى عصام ابنى وأنا أعرفه ٠٠ رجل ولا كل الرجال ٠٠ » واجتاحته نوبة بكاء عارمة ٠٠ لكنه كان يبكى فى صمت ٠

١٢ - بقية التحقيق المثير :



« ٠٠ وفى غرفة ناظر المدرسة ٠٠ التقيت بوجه آخر من وجوه المشكلة الساخنة ، التى لا يعرف أحد فى البلد كله متى تهدأ ٠٠ هذا الوجه هو : ناظر المدرسة بنفسه ٠٠ الذى قال لى بانفعـــال شديد :

ـ « لقد قلت لهم ألف مرة اننا فى مدرســـة لتعليم الأخلاق وتهذيبها ولسنا فى « بار » ٠٠ أو فى « ٠٠٠٠ » وقلت لهم ألف مرة اننا فى بلد ريفى ٠٠ لسنا فى مدن القناة التى تأثرت بالجو الأجنبى طوال سنوات الاحتلال الانجليزى ومعاشرة الخواجات ٠٠ لكن ٠٠ لا أحد منهم هؤلاء المفاعيص والمفعوصات يريد أن يفهم أننا هنا فى بلد مصرى صميم له تقاليده المحافظة ٠٠ لا أحـد أبدا يعرف العيب ٠٠ ويخيل الى أن الأمر سينتهى بأن يمارس الجميع ٠٠ « الجنس » وعلنا ٠٠٠

نحى « **أحمد عصفور** » الجريدة جانبـا ، وقال لرفيق عمره « **عبد الواحد** » التمرجى :

ـ « هذه مغالطة صارخة ٠٠ فأنا الذى قلت للصحفى هـذا الكلام وليس الناظر ٠٠ ثم اننى قلته بمعنى آخر ٠٠

فقال « **عبد الواحد** » التمرجى محتميا بعشرة العمر وسنواته

الطويلة التى جعلتهما صديقين يتشاكيان هم الدنيا وقسوة السنين :

- « **الكل يغالط يا دكتور أحمد ·· لا تشغل بالك ··** »

ثم استغرق فى صمت طويل ، وقد أثقلت قلبه **ذكريات السويس** ، وزكمت أنفه رائحة الحرائق وتراب الهدد ·· وانهيار داره فوق زوجته التى كانت قد رضيت بعقمه ، وكفت عن النقار معه بعد أن شاخت سنها ·

انفطر قلبه لأنها ماتت وحيدة ، بينما كان هو مع « **أحمد عصفور** » يداويان جراح الجنود العائدين من سيناء ··

لكنه حاول أن يستوعب ما يقرأه طبيبه « **أحمد عصفور** » بصوته الواهن ، كانت تفاصيل التحقيق مثيرة ، وكان يعرف أن الطبيب العجوز يقرأ بصوت مسموع ليشاركه ·· فحاول فهم ما يقوله :

- « **لو أن طالبا (عمل خنفس) أو علق سلسلة فى عنقه ، أبهدله · أنا لست ضد الحب · لكن بشرط أن يكون ذلك خارج المدرسة ·· فأنا لا أستطيع أن أواجه ظروف وتقاليد البلد ··** »

·· علق التمرجى « **عبد الواحد** » ، وهو يداعب شعيرات بيضاء فى ذقنه التى لم يعد يعنى بحلقها :

- « **الناظر ·· يبحث عن راحة باله** » ·

·· ··

·· ··

وقال لى ناظر المدرسة فى نهاية حديثه معى :

- « **الدنيا جيب انتهى · جاءنى منشور من وزارة التربية**

والتعليم برقم ٦٩/٧/٥١١٦ يقول : « ونطالب بحمـــاية القيم والأخلاق ونبذ الألفاظ النابية و ٠٠ الميني جيب ٠٠ » وبناء على هذه التعليمات أمرت البنات أن يفردن ثنية الجيبة أو الفســـتان ٠٠ ليغطى الركبة ٠ لكن بعد التفتيش فى طابور الصـــباح يرفعن « الجيبات » الى ما فوق الركبة بكثير ٠٠ »

٠٠ ٠٠

وسأل « **عبد الواحد** » طبيبه ، وكأنه لم يسمع ما قرأه أو كأنه كان يستكمل حوارا حول قضية طال بحثها فيما بينهما :

ـ « متى نفتح عيـــادة فى البلد ٠ المرضى هنا كثيرن ٠٠ وسيروج عملنا من جديد ٠٠ »

فقال أحمد عصفور :

ـ « لقد تعبت يا عبد الواحد ٠ أما يكفيك شقاء كل هـــذه السنين ٠٠ »

وقال عبد الواحد فى لوم مستتر :

ـ « يوم اشتد الضرب ٠٠ سحبتنى من يدى وذهبت تعالج المجروحين المحترقين دون أن تخاف ٠٠ »

فقال **أحمد عصفور** ، وهو يدخن سيجارته ببطء ويسترجع لحظات الرعب ٠

ـ « من قال لك اننى لم أكن خائفا ، كنت أرتعد ٠٠ فأنا أعرف مصيرى لو أن « النابالم » علق بجلدى أو ثيابى ٠٠ » ٠

فتحمس عبد الواحد للحديث ، وقد أسعدته الحيوية البادية على طبيبه العجوز ٠٠ وقال :

ـ « ومع ذلك كنت تدخل البيوت المنهارة ‥ وتسعف المصابين دون أن تهاب ‥ »

وقال أحمد عصفور فى وهن :

ـ « كان كل شيء يحترق ‥ وكان الجنود جرحى على الشط ، وكان الناس يحملونهم دون أن يبالوا ‥ فسقط الخوف من نظرى ‥ نسيته ‥ أو ‥ قل ان الخوف جمعنا كلنا ‥ ألصقنا ببعضنا ‥ وجعلنا نشعر بالونس فى تجمعنا ‥ »

‥ وجذب نفسا من سيجارته على مهل ، ثم أضاف :

ـ « لكننى ما عدت قادرا على علاج أحد ‥ »

فاحتج **عبد الواحد** ، لأسباب كثيرة يحس بها ، ولا يستطيع أن يميز بينها الا ضيقه من الجلوس هكذا كل يوم ، مع طبيبه ، يجتران الذكريات والملل ‥ فقال :

ـ البلد فى حاجة الى عيادة ٠ الأمراض زادت ٠ وما نراه ونسمعه كل يوم يشهد على ذلك ‥ »

استغرق **أحمد عصفور** فى تفكير طويل ، وجد نفسه فى مشرحة كلية الطب ، كان اسمها فى ذلك الزمن : « **مدرسة الطب** » ، وكانت له أحلام تؤرقه ، لكنه وجد نفسه مساعدا طبيا فى جيش الحلفاء فى الشام ‥ ثم فى **ليبيا** ‥ ورأى جثثا لآلاف الجنود من كل لون وجنس ، وأراد أن يتقن دراسته فى هذه **المشرحة الرهيبة** ، لكنه كان لا يجرؤ ‥ كان يخاف أن يدرس علما من علوم العلاج فى أعضاء **الشهداء** ‥ كان يخاف ويلوم نفسه ، ويلجأ الى خيام « **الوحدات الطبية** » ، غير راغب حتى فى مشاركة الأطباء الأجانب مرحهم أو شرابهم ، كان يحس بأن الحرب العالمية لن تنتهى الا اذا أتمت اجهاض أحلامه الكبيرة فى أن يكون طبيبا ،

ثم معلما فى كلية الطب ثم باحثا متفرغا لاكتشافات تحفظ اسمه فى سجلات الخالدين العظام ٠

لكن الحرب انتهت لدهشته ، بعد سنوات ، فعـــاد مصابا بجراح لا تلتئم فى روحه ، ورصاصة مستقرة بقرب القلب ٠٠ ومع ذلك فها هو لا يزال يعيش بينما ماتت زوجته فى سن مبكرة ، وفقد ابنه الوحيد فى المذبحة ٠٠ لقد سأل عنه الجنود الجرحى فى « **الشط** » وأخبره أحدهم :

ـ « كنت زميلا له ٠٠ ووقعنا فى مصيدة « متلا » معـا ٠٠ لكننى لم أره بعد ذلك ٠٠ وفقدت كل أثر لأصدقائى كلهم ٠٠ » ٠

٠٠ ٠٠

٠٠ ٠٠

قال أحمد عصفور :

ـ دخن يا عبد الواحد هذه السيجارة ٠٠ وانصت ٠٠ ففى هذا التحقيق ما يسليك أيها العجوز الطيب ٠٠ »

وقالت لى **ست بيت** ، من الفلاحات : « **كنـــا لا نجرؤ على الخروج من دورنا بعد المغرب ٠ وكنا لا نكشف وجوهنا ٠٠ كنـــا نخاف القيل والقال ، ومعاكسات الشـــبان ، ولكن ٠٠ عندما جاء المهاجرون ، ورأينا بناتهم ونسوانهم ٠٠ وجدنا أنفسنا نكشـف شعرنا ٠٠ ولبست القادرات منا الجزم أم كعب ٠٠ « مابقاش حد عارف حد » ٠٠ واتلخبطت نسوان الفلاحين فى نسوان المهاجرين فما عدنا نخشى الملامة أو تقريع الأهل ٠٠ »**

٠٠ ٠٠

٠٠ ٠٠

قال عبد الواحد :

– لماذا لم يقل هذا الصحفى ، أن نسوان المهاجرين تعلمن من الفلاحين الشىء الكثير . عندك الخبيز مثلا ، وتخزين العيش فى الحلل ، و ..

وصمت **عبد الواحد** لحظة ، فقد تذكر شيئا غريبا ، ولام نفسه لأنه نسيه .. وما لبث أن قال محتجا :

– كان يجب أن يسألنى هذا الصحفى . فعندى ماكان سيفيد تحقيقه هذا .

ضحك أحمد عصفور ، وقال :

– لقد انشغل بثورة المينى جيب فى المدرسة ..

فقال عبد الواحد ، بانفعال :

– هو شاب مهووس .. مؤكد أنه مراهق .. لا يفهم الأسباب الحقيقية للمسألة ..

وأراد **أحمد عصفور** ، أن يطيل من قعدته فى شمس ذلك اليوم الطويل ، الذى لا يجد فيه ما يشغله .. فسأل ممرضه العجوز :

– « هيه » وماذا عندك .. ما الذى كنت ستقوله للصحفى يا عبد الواحد ؟ .. »

اعتدل **عبد الواحد** فى جلسته فوق « الحصيرة » وأسند ظهره الى جدار البيت ، الذى يشغل مع أحمد عصفور نصف حجرة فيه ، وقال :

– لدى الكثير يا دكتور أحمد . فأولا .. ليست هذه هى الهجرة الاولى الى البلد .. »

فقاطعه متضاحكا :

ـ « كلنا نعرف هذا ٠٠ فقد هاجرنا فى ١٩٥٦ ٠٠ »

قال عبد الواحد :

ـ العواجيز أمثالى يعرفون انها الهجرة الرابعة يا دكتور أحمد ٠٠ كنت أنت أيامها فى الحرب العالمية التى بدأت فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ ٠

ونظر الى صديقه الطبيب ، متباهيا بقوة ذاكرته ثم أضاف :

ـ « كانت هجرتنا الاولى للبلد ، فى سنة ١٩٤٢ ، عندما ضرب الألمان قوات الحلفاء فى القنال ٠٠ وكانت هجرتنا الثانية فى ١٩٥٢ لما ضرب الانجليز قوات البوليس فى الاسماعيلية ، وخشينا أن يمتد عقابهم الينا فى السويس وفى بورسعيد بسبب الفدائيين ٠

قال أحمد عصفور :

ـ « لم تكن هجرة جماعية ٠٠ انها ـ ولا تغالط ـ كانت فرار بعض العائلات خوفا على حياتهم ٠٠ »

احتج عبد الواحد :

ـ « أنا لم أخف ٠٠ كنت فى « الكامب » واشتركت فى الاضراب عندما طلب الفدائيون ذلك ٠٠ لم أخف ٠٠ »

داعبه أحمد عصفور قائلا :

ـ « أنت رجل لا تهاب ٠٠ أعرف هذا ٠٠ هيم ٠ اجئت الى البلد فى سنة ١٩٥٦ ٠٠ أيضا ٠٠ »

قال عبد الواحد :

ـ « جئنا كلنا فى ١٩٥٦ ٠٠ كنا نعرف أن الضرب سيكون

ضدنا بدون عقل .. فانا أعرف الانجليز . اخلاقهم ضيقة ، وأعصابهم مفلوتة .. »

ضحك أحمد عصفور ، وقال :

ـ « **هذه مغالطة ياعبد الواحد . انهم مشهورون بالبرود .. »**

قال عبد الواحد :

ـ « لكن تأميم القنال حرق أعصابهم .. ثم .. كانت معهم فرنسا التى دوخها رجال الجزائر .. **باختصار .. شعرنا بأنها ستكون معمعة لا يعلم مداها الا الله .. فخرجنا كلنا من القتال وهاجرنا .. »**

وقال أحمد عصفور :

ـ لقد نسيت شيئا يا عبد الواحد ..

أسرع يقول :

ـ « تقصد الصهاينة . كنا نعرف ـ كما قيل لنا يومها ـ انهم لن يحتملوا « الخضة » .. وكانوا سيفرون كالأرانب اذا رأوا جيشنا الذى عبر ليؤدبهم !! » .

قال أحمد عصفور :

ـ لا أقصد هذا .. أقصد أنك نسيت أننى كنت معك فى سنة ١٩٥٦ .. احمر وجه عبد الواحد ، وما لبث أن دافع عن نفسه :

ـ « **لم أكن خائفا كما تظن . والله أبدا . أنا فقط كنت أريد أن أكون معك .. »**

وخيم الصمت فترة طويلة ، فأحسا بثقله ..

وأخيرا قال عبد الواحد :

– « لكننا رجعنا بسرعة الى بيوتنا سنة ١٩٥٧ .. »

وفجأة أحسا بأن وجودهما فى البلد قد طال هذه المرة .. وعجزا عن التخمين بيوم العودة الى السويس ، وازداد احساسهما بالعجز ..

❋❋

.. فوجىء **أحمد عصفور** ، ببلطية تقف أمامه ، ومعها على صدرها ، ابنها « **نور** » طلب منها **عبد الواحد** أن تجلس ، لكنهـا قالت باضطراب :

– « نور يا دكتور أحمد .. يموت »

ففزع عبد الواحد ودخل الى حجرة الدكتـــور ، وبحث عن حقيبة العلاج وسط أكوام من الأثاث والأشياء القديمة ..

وسألها أحمد عصفور :

– كان يتماثل للشفاء فى آخر مرة رأيته ..

قالت :

– من يوم جرح فى رأسه ، وهو ضعيف .. لا يحتمل الهواء الطاير ..

وأخيرا عاد عبد الواحد بحقيبة العلاج ، وبداخله شـــعور مفعم بالفرح لأنه وجد نفسه ، كما كان ، ممرضا ، يفعل شيئا .. وأخذ « **نور** » من **بلطية** .. وعرى صـــدره ، ووقف به أمـــام « **أحمد عصفور** » ، الذى علق « سماعة » الكشف فى أذنيـه وبدا مهيب المنظر ، فازداد فرحه ، وأيقن أن **أحمد عصفور** سيفتح عيادة فى البلد .

سعل « **نور** » وعطس ، فانخفض قلبها ، وقالت :

- **تعرى الولد فى الشارع يا عبد الواحد . لقد أخذ بردا .. وسيموت . وانهارت على الأرض تنـــدب حظها المـــائل ..**
فواساها عبد الواحد .. وطمأنها أحمد عصفور وقال :

- « **لا تهولى يا بلطية . انها** « **أنيميا حادة ..** »

لم تفهم بلطية شيئا مما قاله .. فعادت تسأل بخوف :

- « **يعنى الحالة خطر .. ؟** »

فقال لها عبد الواحد :

- « **ابنك ضعيف .. لابد من الاهتمام بتغذيته جيـــدا بالفيتامينات يا بلطية** » .

ومرة أخرى لم تفهم بلطيـــة ، بينما نظر **أحمد عصـــفور** الى **عبد الواحد** ونهره ، كما كان يفعل دائما ، كلما تدخل **عبد الواحد** فى عمله ، وشارك فى تشخيص العلاج للمرضى . وقد كان هذا طبعه ، منذ زالت الكلفة بينهما فى عيادة السويس .. ولكنـــه لم يشأ أن يتمادى فى تأنيبه فالحال الآن غير الحال ..

انشغل بالبحث عن ورقة لكتابة « **الروشتة** » بالعـــلاج اللازم .. لم يجد فى حقيبته ورقا ، لم يجد فى جيـــوبه ، رأى الجريدة بجواره ، **صدمه العنوان المثير عن « ثورة المينى جيب »** ، **فامتدت أصابعه التى تكرمش جلدها ، وقطع الجزء الذى يحمـــل عنوان التحقيق المثير ، كانت به مساحات بيضاء ، وكتب فيها بقلم رصاص اسم الأدوية اللازمة للعلاج** ، وقال لبلطية :

- **اشترى الدواء ، ولا تعطيه لنور قبل أن أراجعه ..**

كانت هذه عادته . يطلب من مرضاه دائما أن يعرضوا عليه

الادوية قبل استعمالها ، ليتأكد بنفسه من ان الصيدلى لم يبعهم دواء بديلا ، فهو لا يؤمن كثيرا بالأدوية البديلة لكنه فوجىء ببلطية تسأله :

ـ لا توجد بالبلد أخزخانة .. وعلى الصياد لا يعرف القراءة .. فكيف يعطينى الدواء ..

وتذكر أحمد عصفور ، ان البلد ينقصه الكثير ، وقال عبد الواحد :

ـ أنا أسافر بنفسى الى البندر واشترى الدواء لنور .. لا تحملى هما يابلطية ..

وأحس **أحمد عصفور** بالرضاء ، وكبر **عبد الواحد** فى عينيه، فاخرج من جيبه بعض النقود وأعطاها له ، وحاولت **بلطية** أن تحتج ، وأصرت على أن تدفع هى ثمن الدواء .

ان أحمد عصفور يعرف ـ بوصفه مسئولا فى لجنة رعاية المهاجرين ، ان الاعانة المخصصة لبلطية قد خصم منها نصيب زوجها ، الذى طال غيابه ، وقد حاول **هو والشيخ تهامى وفتوح أفندى وأبله هدى** ، اقناع الضابط **وجدى** بالسعى لدى المسئولين للابقاء على نصيب زوج بلطية فى الاعانة المادية والعينية ، لكنه قال بأسف يومها : «**لقد رفضوا . وقلت لهم ان الشهداء والمفقودين تصرف لذويهم اعانات ، فقالوا لى ان «ابانور» ليس شهيدا وليس مفقودا .. لأنه لم يشارك فى الحرب .. ، فلما قلت لهم انه فقد عمله بسبب الحرب .. قالوا لى : « كان بمبوطيا ، وسنبحث الأمر » . أحمد عصفور يعرف أيضا ان بلطية قد عانت ما يزيد عن الاحتمال .. فأعاد اليها نقودها التى وضعتها برغمه فى يده ، وقال :**

ـ عودى أنت لبيتك يا ابنتى . وثقى فى رحمة الله ..

وبعد دقيقة ٠٠ أو نصف ساعة ، هو لا يذكر ، وجد نفسه قد ضاق بوحدته ، فعاد الى الجريدة يطالع بقية **التحقيق المثير** :

« وقد سمح ناظر المدرسة لمندوبنا بلقاء مجموعة من الطالبات، على انفراد ، منعا لحرجهن من وجود الناظر أو المدرسين ، وأدار معهن حوارا صريحا وجريئا ، حول مشـاكل الجنس والحـب فى حياة البنات ، وقد تأكد بشكل قاطع ان الجيل الجديد أكثر وعيا بظروف العصر ، وان كانت آراء البنات قد كشفت بشكل قاطع أيضا عن مدى التخلف والجهل وسوء الفهم السـائد فى البلد ، كما أكد لمندوبنا ان الطلبة من أبناء الفلاحين أكثر هياجا وأن تصرفاتهم فى الفصول تؤكد انهم يعيشون فى كبت ، وأن نظراتهم تعرى جسد البنات من كل ثياب ٠٠ وفيما يلى نص الحـوار الصريح والجرىء بين مندوبنا والطالبـات ٠٠ وان كان لا بد من اثبـات ملاحظة هامة منذ البداية وهى أن هؤلاء البنات من أوائل فصول المدرسة، ولهـذا دلالته العلمية والنفسـية كما سيلاحظ القـارىء العزيز من عمق فهمهن لمشكلة الحب والجنس ٠٠ »

❋ ❋

طوى **أحمد عصفور** الجـريدة ، نافـد الصـبر ، وقال :
عبد الواحد معه حق ٠ البلد فى حاجة الى عيادة ٠٠ ودواء ٠٠ »

واعترف فى سره بأنه ما كان يجب أن يؤجل ذلك منذ جاء ، وأحس بفداحة اهماله ونظر الى أدوات العلاج فى حقيبته القديمة، بحنين جارف ، لكنه ما لبث أن اغتم عندما رأى آثار دماء جافةتبقع جلد حقيبته ، وانفتحت فى أعمـاقه نافذة بعرض السويس وطول القنال ٠٠ وحاصرته الانفجارات والغارات وطاردته الشظايا فاحتمى بجوار جامع «**سيدى الغريب**» ٠٠ ثم عاد يبحث عن المخبأ ، فضل طريقه ، وقاده عبد الواحد الى عربة الاسعاف ، لكنهما وجدا سائقها

قتيلا ، فاختفيا تحتها وسط التراب وأقفاص الحمام وحطام الجدران .

توقف شريط الذكريات المرعبة فجأة ، عندما وصل على الصياد .. لا يدرى أحمد عصفور كيف أو متى ، لكنه سمعه يصيح فى وجهه :

ـ من خمسين سنة وأنا أعالج أهل البلد .. وأكوى بهائمهم، فكيف ترضى لنفسك أن تقطع رزقى ..

عجز **أحمد عصفور** للحظة عن فهم ما سمعه ، فظل ينظر الى **على الصياد** ، عجوزا مثله ، وأن يكن يلبس طاقية من الصوف على رأسه ، وجلبابا بقفطان ، حائل اللون مثل بنطلونه .. حاول أن يكسب بعض الوقت ليشرح المسألة لعلى الصياد ، ويؤكد له انه ما فكر فى قطع رزقه ، وأنه منذ لحظة واحدة فقط ، ظن أن البلد فى حاجة الى عيادة .. طلب من على الصياد أن يتفضل بالجلوس لكن الرجل رفض ، وقال محتدا :

ـ تريد أن تضحك على يا أحمد يا عصفور .. من تظننى .. عيلا صغيرا أبول على نفسى .. شىء غريب والله . أما يكفيك ماتفعلونه بالبلد .. وتريد أن تقطع رزقى .. سبحان الله ..

أحس أحمد عصفور بالحزن ، وبالغضب ، وأراد أن يلوم على الصياد ، لكنه راجع نفسه ، وقال فى محاولة جديدة لتهدئته :

ـ يمكننا أن نتعاون .. وأعدك بأن تأخذ ما يكفيك من أجر العلاج .. اذا كان هناك أجر ..

فأحس **على الصياد** بأنه مقبل على مواجهة موقف جديد عليه. ماذا يقصد أحمد عصفور . انه اعتاد أن يأخذ أجره من أهل البلد

قروشا أو بيضا أو كيلة ذرة أو طاجن لبن ، أو رطلا من السمن أو الزبد • فماذا يقصد أحمد عصفور اذن •• قال له :

ـ وتريد علاجهم بدون أجر أيضـــا •• ؟ •• هذا بعيد عن شنبك •• أنا أعرفكم يامهاجرين •• وأعرف مكركم •

وقف **أحمد عصـــفور** ، أوقفه احساسه بالمهانة ، وشعوره بالجراح التى أصابت كرامته فى الصميم ، وانفلت لسانه برغمه:

ـ ياعلى ياصياد •• حاسب على كلامك من فضلك •• اننا بشر مثلكم •• وماجئناكم طالبين شرا أو اساءة •• وكفانا ما حدث لنا من مصائب •

فقال على الصياد ، وقد فقد ما عرف عنه من حذر ومقدرة على المراوغة :

وما دخلى أنا بمصائبكم • أنا فى الكارثة التى حلت بى منذ رأيت وشوشكم •

من أين يأكل عيالى •• اذا عودت أهل البلد على العلاج بدون أجر • كيف أتصرف معهم أنا بعد ذهابكم ؟ •

قال أحمد عصفور ، بنفاد صبر واضح :

ـ لا يعلم الا الله وحده •• متى نذهب من هنا ••

ثم عنف على الصياد بصوت استجمع فيه كل بقايا عافيته ، وكل آلامه وأحزانه وهموم عمره :

ـ بيوتنا اتهدمت •• ومات الكثير من الآباء والامهات والابناء، واحترق الاطفال والكبار •• وجئنا اليكم عرايا •• وقايضنا الفلاحين بما كان معنا من راديوهات و « سراير » أو ثياب جديدة ، لنحصل على الدقيق والارز • أو اللبن لأولادنا •• فمـــاذا تريد اذن يا على يا صياد • هه • قل • أريد أن أسمع ولو مرة واحدة أحدكم يكلمنا بصراحة ، ماذا تريدون منا • لم يعد لدينـــا ما نقـدمه •• حتى

شعورنا بالعجز وضياعنا في الغربة نقدمه كل لحظة ٠٠ كل ساعة ٠٠ وللأسف ٠٠ شرفنا نقدمه لمن يدفع نقـــودا ٠٠ وبلطية تنوب عنا جميعا في هذه التضحية الرهيبة ٠٠

وفجأة انهار **أحمد عصفور** ٠ عجز عن احتمال نفسه وآلامه ، فانحط على الحصيرة وفشل في كبت رغبته العـــارمة في البكاء ، لكنه مع ذلك تماسك ٠٠ ولم يبك ٠٠ وظل صامتا ، مغبر الوجه ، مهتز الأعصاب ، وفي صمت ، وشعور شديد بالخجل جلس بجواره على الصـــياد ، وأراد أن يقول شيئا ، أن يعتذر ، أن يقبـــل رأس الرجل ، لكنه عجز ، فأخرج علبة الدخان من جيبه ، ولف سيجارة حرص على أن تكون ممتلئة أكثر من اللازم بالدخان ، وقدمها لأحمد عصفور ، وأشعلها له ، ولف لنفسه سيجارة رفيعة بسرعة ، وجلس الرجلان يدخنان في صمت ٠

وما لبث على الصياد ـ بعد زوال الجرح ـ ان انهمك في قص حكايات هارون الرشيد ونوادر جحا ، حتى أضحك أحمد عصفور وجعل الدموع تفر من عينيه ، كعادته كلما ضحك ! ٠٠



١٣ ـ صلاة من أجل الأحياء :



« انني ضد اقامة الصلاة على ارواح الموتى والشـــهداء وحدهم .. انني من انصار الصـــلاة من اجل الأحياء أيضـــا .. فالبلد في محنـــة .. »

كان خالد يقرأ متهتها : « ٠٠ وقـد قالت لى الآنسة هدى ، وهى المدرسة الوحيدة فى البـــلد ، من الجنس اللطيف ، وجدير بالذكر انهـا ليست من البلد ، وانهـا من مهاجرى بورسعيد الذين ضربوا أروع الأمثلة فى حرب ١٩٥٦ ٠٠ قالت :

« الحروب ٠٠ ليست وحدها سبب الهـــجرة الدائمة داخل الوطن ٠ فعبر التاريخ ، كانت الهجرة مستمرة من الصعيد الى وجه بحرى والعكس ٠٠ وأبناء القناة معظمهم ، صعايدة ، وبحاروة ٠٠ بعضهم جاء أجدادهم ليحفروا قناة السويس ، ثم اســـتقر من بقى حيا منهم فى بورسعيد أو الاسماعيلية أو الســـويس ٠٠ وانشأوا أسرا وعائلات ، وبيوتا ، وزرعوا الأرض ، وبعضهم الآخر ، جاء من الريف ليعمل فى معسكرات الانجليز ، وفى ورش القناة ٠٠ وهكذا ٠٠ نجد أننا أصلا ٠٠ أهل ، ولسنا غرباء عن بعضنا ٠٠ »

وصمت **خالد** ، مرهقا ، اذ أجهـدته أمه بقراءة هذه السطور ذات الحروف المنمنمة فى الجريدة ، وان كان أحس بأنه قد فعل شيئا يجعله يفخر بنفسه أمام أمه الست أم خالد ، وأقسم فى سره انه «حتى الولد نور ٠٠ لا يعرف ، ولا يقدر على قراءة الجرنال ٠٠ مثله ٠٠ »

وتذكر للحظة خاطفة ، أنه لم يعد يرى «**نور**» فى الفصل ،

وأنه فكر أن يزوره فى المعسكر ــ فى مخازن العمدة لكنه لم يذهب خوفا من بلطية التى ستقطم رقبته ان هى رأته ..

لكن خالد تنبه من خواطره هذه عندما قالت له أمه :

ــ هيم .. أكمل يا ولد .. انك تفلقنى بتهتهتك . لو كان خالك وليد هنا .. لقرأ لى الجرنال كله فى دقيقة ..

فسألها خالد :

ــ ألن يعود خالى يا أمى .. لقد غاب كثيرا .

فملأت الدموع عينى أمه ، لكنها تماسكت ولم تبك .. وأرادت أن تعرف ما قاله زوجها فى الجريدة فقد سمعت الجيران يقولون ان الشيخ **تهامى** قال كلاما حلوا للصحفى ، ورأى خالد جدته تصحو ، تقلبت فى فراشها ، ثم أنت وتأوهت ، وتثاءبت ، ثم جلست وقالت لابنتها :

ــ رأيت حلما .. اللهم اجعله خيرا ..

فقالت أم خالد :

ــ خيرا ان شاء الله يا أمى ..

وبعد أن ملأت الجدة أنفها بالنشوق ، وعطست أحست بحيويتها ، فقالت بصوتها الواهن :

ــ رأيت أنى أغرق فى ترعة أم شوشة .. ولا أحد يسمع صراخى ..

وصمتت لتعطس من جديد ، فسألها خالد بشوق ولهفة :

ــ هيه .. وبعد ياجدتى .. لو أننى عرفت لنجدتك . فأنا أعوم كالسمكة ..

وضحك ٠٠ فقالت جدته :

ـ وغطست تحت الماء ، وقلت أشهد أن لا اله الا الله ٠٠ وان محمدا عبده ورسوله ٠٠

وتهيأت من جديد لتعطس ، وتفرغ أنفها في طرف طرحتها ، فنظرت أم خالد الى وجه أمها المكرمش وأحست بأنها ستموت عما قريب ، وفزعت لهذا الخاطر ، فسألتها ، علها تنسى خوفها :

ـ هيه ٠ وبعد يا أمي ٠ من نجدك ٠٠

فقالت الجدة بنغمة صوفية :

ـ نجدتني المنجدة ، الست الطاهرة

وسألها خالد بدهشة :

ـ ستنا زينب تعرف تعوم في الترعة ياجدتي ٠

فنهرته أمه ، وأضافت جدته :

ـ رأيتها بجلبـــاب أبيض حرير ، وطرحة حرير ، ووشها كاللبن الحليب ، تمد يدها البيضاء ، وتنشلني من الغرق ٠٠

وقالت أم خالد :

ـ هو خير باذن الله ٠

ثم أضافت بعد لحظة :

ـ لها النذر باذن الله ٠٠ أوقد في مقامها الطـــاهر شمعة ، وأوزع العيش والفول النابت ، لو عاد وليد بالسلامة ٠

وقال خالد :

ـ وارز بلبن يا أمي ٠ من زمن لم نأكله ٠٠

فقالت أمه :

- **الشيخ تهامي يوزع اللبن كل يوم على ضيوفنا وغيرهم في الدور المجاورة ..**

وتذكر خالد شيئا ، فقام ، وهو يقول :

- **سألعب مع أولاد الست أم سامية ..**

وأشار بيده الى الحجرة التى كان يشغلها خاله وليد .. والتى تحرص الست أم سامية على اغلاقها عليها وعلى عيالها ، حتى لا يزعجوا الست أم خالد ، فهكذا أمرها زوجها «**أبو سامية**» الذى كان يحذرها :

- سأضربك حتى الموت اذا ضايقت أنت أو **الاولاد أهل الشيخ تهامى** .

وتذكرت أم خالد ، ان جارتها الست **أم سامية** ، وجارتها «**أم فاتن**» - التى تقيم فى «المندرة» .. **لا يجلسان معها الا عندما ينام أولادهما** .. أو اذا أصر الشيخ تهامى على أن يتغدوا معا .. **وهو يقول** : « البركة فى **الجماعة** .. الصلاة جماعة .. والأكل جماعة ، **وبارك اللهم** لنا فى رزقنا **وعيالنا** .. »

وقالت **أم خالد** - فى سرها - سأنادى الست أم سامية والست أم فاتن ليشربا معى شايا أو حلبة . ثم قالت لخالد :

- **انتظر ياولد .. ستقرأ الجريدة ..**

احتج خالد ، وقال :

- **قرأتها لك يا أمى ..**

قالت :

- **وكلام الشيخ يا مقصوف الرقبة .. هل قرأته لى ..**

ثم نهضت ، وتخطت مرقد أمها فى حوش الدار ، ثم خرجت من باب الحوش ، حتى وصلت الى باب المندرة ، وباب حجرة أخيها وليد « والبابان على فسحة خارجية منها للشارع «مباشرة» وبعد لحظة عادت ومعها الســت أم سـامية ، والست أم فاتن وجلست بينهما ، تعد الشاى ، وتنصت لابنها خالد :

« وقال لى الشيخ تهــامى ، واعظ البلد ، وهو رجل يحبه الناس ، ويثقون فى كلمته ، كما انه عضو لجنة رعاية المهاجرين . ولديه ذاكرة تلفت النظر ، فقد ذكر لى ــ دون الرجوع الى أوراق أو دفاتر ــ ان عدد المهاجرين بالبلد حوالى « ٥٠٠ عائلة » يقيمون فى دور الفلاحين ، وذلك غير معســكر الضيافة الذى يتسع لـ ١٢٥ فردا ، وقال ان عدد الأسر التى تصرف لها اعاشة بالفعل يصل الى ١٥٠ أسرة عدد أفرادها تقريبــا ٩٠٠ فرد وأن ٩ من الموظفين المهجرين يعملون خارج البلد ، وواحدة منهم فقــط تعمل مدرسة بالبلد ٠٠ وليس بينهم غير طبيب واحد متقاعد هو « أحمد عصفور » ولكى يعرف قارئى العزيز مدى دقة ذاكرة الشيخ تهامى ، أقول له اننى بعد الرجوع الى الدفاتر الخاصة بالمهاجرين وجدت ان الارقام التى ذكرها الشيخ دقيقة تماما ٠٠

المهم ٠٠ انه قال لى رأيا جديرا بالتأمل فى « ثورة الميتى جيب بمدرسة البلد»

قال ــ لولا انصراف الناس عن الدين ما حدث فى البلد ٠٠

فقلت له : «لا داعى للحرج ٠٠ أريد رأيا ينشر فى ثورة الميتى جيب ياشيخنا » ٠

فابتسم لى وقال : « اسمع ياولدى ٠٠ سأحكى لك ما سمعته من «**وليد**» نسيبى ذات مرة ــ رغم اختلافى معه فى كثير من آرائه ، الا أن ما سأقوله لك الآن كان رأيا له قيمته فعــلا ٠٠ فقد قال

انهم لكى يفهموا سر الفن فى عهـد الاغريق وعظمة مسرحياتهم ـ و « وليد » نسيبى كان طالبا فى معهد التمثيل ـ كان لا بد لهم من دراسة وفهم الدين وموقف الشعب والسلطة أيامها منه ٠٠ »

ثم أضاف الشيخ : « واذا كان هذا يحدث فى بلد الاغريق ، فبلدنا نحن أكثر من غيره ، لن نفهمه الا اذا فهمنا الدين ٠ وقد كان ليوسف رأى وجيه فى هذه المسألة ٠٠

وسألته : **يوسف من ؟ ٠٠ هل هو «سيدنا يوسف»**

فقال الرجل مبتسـما : انه زميل لوليد وعصام ، وهو من المهـاجرين ـ ولم أسأل الشيخ عمن يكون «عصام» هذا ، لأننى أردت أن أركز ذهنى فى رأيه هو ٠٠ فصمت ، حيث قال الرجل الوقور :

« كان الاولاد يناقشوننى كثيرا فى أمور الدنيا والدين ، وكان ليوسف رأى وجيه يقول : « ان كل حضارات العالم كانت مرتبطة بالدين ، ففى أوربا ـ مثلا ـ نجد النهضة الزراعية فى العصـور الوسطى ، ظلت طوال ألف عام تقريبا فى ظـل الدين ٠٠ وهكذا تجداننى على صـواب فلو أن نزعة الدين قوية فى نفـوس الاولاد والبنات ، لما حدث ما حدث » ٠

....

...

توقف **خالد** فجأة عن القراءة والتهتهة ، وقـد تعبت عيناه ، وقال لأمه :

ـ لا أفهم هذا الكلام يا أمى ٠ أيكون الصحفى قد زور كلام أبى ٠٠

نهرته أمه وهى تصب الشاى لجارتيها ولأمها ٠٠ قائلة :

ـ تأدب ياخالد ٠ واكمل القراءة ٠٠

فقال الولد :

ـ كلام أبى أسهل من هذا ٠٠ كلما تكلم مع خالى أو عصام ويوسف ، أو حتى معى ٠٠ يكون كلامه مفهوما ٠٠

لكن أمه زغرت له بعينيها ، فعاد يقرأ :

« وحاولت أن أوضح للشيخ تهــامى رأيى فى المسألة حيث اننى أرى أن ظروف العصر ، وخاصة ثورة الاعلام ، وانتشــار لغة الصورة ، كل هذا وغيره ، الى جانب ثورات الشباب فى العالم ، قد جعلت للدين وسيلة أخرى متطورة لممارسته ٠٠

لكن الشيخ لم يعطنى الفرصة ، اذ قال :

ـ « لقد كان الفراعنه يؤمنون ، من قبــل نزول الأديان ، بفناء الحيـــاة الدنيا ، وبخلود الحياة الآخـرة ، وأذكر ان الأولاد كانوا يقولون لى ، ان القدماء كانوا يصلون من آلاف الســنين ، فى زوايا مصــــنوعة ، من الطين مثلما يحدث فى حقول بلدنا الآن ٠٠ وانا اثق فى الأولاد ، لأنهم قرأوا أكثر منى ، وتعلموا فى عصر غــير عصرى ٠٠ رغم اختلافى معهم فى كثير من الأمور والآراء الأخرى ٠٠

وصـــمت الشيخ ، ووجدتنى ادهش ، فانا لا أعرف هؤلاء « الأولاد » الذين يستشهد بآرائهم ، وسألته سؤالا مباشرا :

ـ ورأيك أنت شخصيا يا شيخ تهامى ؟ فقال : « تأثرت بالشيخ محمد عبده » الذى كان فى كل آرائه يدعو لنفض التراب عن المفهوم الحضارى للاسلام ، ويصيح بالآية الكريمة : « **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » ٠٠ وقلت للشيخ : سمعت

انك سجنت عام ٦٥ .. أفهم من ذلك انه كانت لك علاقة «بقضية الأخوان» ؟.

قال الشيخ : ان بعض الظن أثم يا ولدى ، وقد قال على بن أبى طالب « ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه » وعموما .. لست برجل أحزاب .

وسألته : « هل سمعت عن **الهيبيز** يامولانا » ؟

فقال الرجل الطيب : « صحفكم تهتم بصـــورهم وأخبارهم أكثر من اهتمامها باخبار الدين والحرب ..

واضطررت ان أؤكد للشيخ اننا لا يمكن ان نعيش بمعزل عن أحداث العالم ، وان للدين نصف عمود ثابت فى الجريدة ، كمـا أن مراسلنا العسكرى نفسه قد قتل فى احد الاشتباكات مع العدو فى جبهة القتال .

فهز الشيخ رأسه وقال :

ـ « قل على لسانى . اننى ضد اقامة الصلاة على ارواح الموتى والشهداء وحدهم ، واننى من أنصار الصلاة من أجل الأحياء أيضا .. فالبلد فى محنة ، ولا يجب ان نترك واحدا منا ، يواجه الغزوة بمفرده .. فيد الله مع الجماعة ، وكلنا مدان ، وكلنا شارك فى حدوث ما حدث وكلنا أصحاب مصر وأهلها .. »

وسألته : «**وثورة المينى جيب**» ياشيخ تهامى .. مارأيك فيها وهل ترى أنهـــا علامة على التطور الحضـــارى فى بلدكم الريفى هذا ؟ .. »

فنظر الى الشيخ بدهشة بالغة ، وكأنه يســتنكر جهلى ، ثم قال : « كل ماقلته لك هو رأيى .. ياولدى » .. ثم أضاف بهدوء :

- « لست من دعاة الرهبنة والجلوس فى المساجد ليل نهار ·· وانما انا مع القائلين بأن ديننا ، دين عمل وكفاح وتطور ايضا لكنه التطور بنور العقل والقلب معا ·· »

وكان صوته صوفيا بشكل ملحوظ ، وهو يتلو : و ·· «**اهدنا الصراط المستقيم** » ·· وصمت ·

❋ ❋

أحست الست أم خالد بالفخر ، لا تدرى لماذا ، انها لم تفقه كل ما قرأه ابنها ، فقد احست بأنه غامض وصعب على فهمها ، وهى التى لم تتعلم كيف تكتب اسمها الا بعد أن تزوجها الشيخ تهامى وحاول ان يعلمها القراءة والكتـابة ، لكنهـا لم تتحمس وأتعبته فتركها ، كما حاول شقيقها « وليد » بعد أن دخل الجامعة ان يدخلها فى زمرة الذين يعمل مع زميليه على محو أميتهم فى مقر « **لجنة خدمة البلد** » ·· لكن الشـيخ تهامى رفض ، وقال : « **علموا الرجال أولا ·· فالرجال قوامون على النسـاء** » ·· لكنها مع ذلك تحس بالفخر يملأ صدرها ، لأن اسـم زوجها الشيخ وصورته تلعلع فى الجريدة ، ولأنه لم ينس « **الأولاد** » وتحدث عنهم ·· فاخذت تروى لجارتيها « **أم سامية** » **و** « **أم فاتن** » عن أخيها وليد ، وصاحبيه عصام ويوسف ··

قالت لهما :

- « كان الأولاد ·· يحملون عن البلد الكثـير من الهم ووجع الدماغ ·· علموا الأنفار يكتبون أسـماءهم حتى لا يغشهم ناظر « التفتيش » وجعلوا الفلاحين يسحبون اختامهم من الجمعية الزراعية حتى لا يزور الباشكاتب والمخزنجي الديون على رءوس الفلاحين، وملأوا شوارع البلد رسومات ·· رسمها بنفسه يوسف ·· وقد سمعت الشيخ تهامى بنفسه يشهد له بالبراعة ، ·

قال مرة لأخي وليد : « صاحبك يوسف رسام يتقن فنه ، ولو أنه وجد في عصر الجاهلين لجعلهم يعبدون رسوماته بدلا من التماثيل .. »

ويومها ضحك وليد - أعاده الله بالسلامة - هكذا علقت جاريتها - وقال للشيخ : « **ما عاد الفن فتنة للناس .. ان يوسف يساعدنا في محو الأمية برسومات .. كما أنه جعل من جدار الجامع جريدة لنشر أخبار الحرب وحسابات الجمعية الزراعية وصور الذين تعلموا كتابة اسمائهم .. »**

❋ ❋

.. وفي المغربية ، أحست «ام سامية» و «ام فاتن» باحساس الست أم خالد نفسه ، وامها العجوز والولد خالد .. احسسن جميعا بان « الأولاد » قد طالت غيبتهم .



١٤ ـ وادى الحياة الخصيب :

«دفعها حبها ليوسف٠٠ الى بيته
ومرسمه ٠٠ كانت تحس بالرغبة اليه
٠٠ تمنت لو احتواها بذراعيه و ٠٠»



في غرفة من غـرف مخازن العمـــدة الواطئة ، ذات النوافذ الحديدية القريبة من السقف الخرساني ، احست « هدى » بضيق يكتم أنفاسها ، ويثقل ثيابها الخفيفة ، فخلعت فســتانها ، وظلت بقميص نومها ٠٠ دون ان تحس بالحرج من والدها الجالس أمامها ٠٠ بعجزه الواضح فى جسده ، وكانت قد أعتادت رؤيته أمامها ، واعتادت ما يفجره فى أعماقها من ذكريات الحرب الغادرة ٠٠ ولم تعد تفزع من شئ ، ولا حتى من نظراته اليها وهى شبه عارية ، بل انها صارت تجعله يغسل لها ظهرها كلما استحمت فى الغرفة، ليلا ، وكانت هى تحميه بنفسها ٠٠ كما تحمى أخوتها الصغار ٠٠ كانت تشعر بانه أبوها وأخوها وصديقها وابنها ايضا ٠٠

٠٠ لكنها اليوم ، تحس احساسا متزايدا بالاختناق ، وعندما عرفت من « الجريدة » أن درجة الحرارة اليوم «**٤١ درجة فى الظل**» احست بالدم يضرب نافوخها ، وتمنت لو أن بالمعسـكر « دشا » باردا ، وتذكرت شاطئ بور سعيد ٠٠ كانت تغطس فى المـــاء ، وتستزيد من مداعبات يوسف لها ٠

فى حصة القراءة ، فى **فصـل ٢ ــ ٣ ابتدائى** اليوم ، كانت مجهدة ، يشـــدها الحنين ليوســـف ، والأولاد يقرأون بتهتهـة أمامها :

« يا الهى • أنت قد اعطيتنى عينـــا لأبصر ما فى الأرض من حسن ومنظر •• يا الهى الشكر لك يالهى الحمد لك •• »

•• احست بالملل والضيق ، فقالت لهم هذا النشـيد ، من **صفحة ١١٥ الى صفحة ١١٧ واجب منزلى »** •

ثم غادرت المدرسة ، حاولت أن تنصرف الى همومها ، كان يوسف أخا وصديقا ، كان بها رحيما ، وما حاول مرة ان يؤذيها •• دفعها حبها له ذات يوم الى بيته ، جلست معه فى غرفته ، كانت تحس بالرغبة اليه ، تمنت لو احتواها بذراعيه وضغطها •• وقبلها واشبعها ، ولكنه كان يقاوم اشتهاءه رأت ذلك فى عينيه ، فى قلقه ، فى جلوسه وقيامه ، فى تقليبه صفحات الكتب ، والكراسات •

يومها •• عرض عليها لوحاته ، وحدثها عن حلمه الصـغير فى أن يكون ذات يوم فنانا •• وكلمهـــا عن مدارس الرسم ، عن « **انجلو** » و **بيكاسو** » و « **دالى** » وعن « **فان جوخ** » الذى قطع اذنه بسبب حبه لفتاته ، وقال لها :

ـ « ولكننى لن اقطع اذنى رغم ان حبى لك يفوق حب «جوخ» لفتاته ، لأننى أريد أن أسمعك •• فلم الصمت يا هدى •• » •

•• يومها لم تكن تريد الكلام ، كانت الرغبة تلهب مشاعرها، وتفقدها الصبر ، لكنه لم يفعل غير أن ضمها الى صـــدره بحنان ، وقبلها •• ثم قال لها :

ـ « سأرسم لك لوحة •• ما رأيك » ••

ثم أضاف :

ـ « فيك الكثير من ملامح « أيزيس » » •

يومها سألته ضاحكة :

ـ « كيف ؟ •• هل رايتها » ؟ ••

فقال :

- « وحدثتهـــا كثيرا عنك ٠٠ معبـد أبيدوس ٠٠ كلما زرت اقاربى فى سوهاج » ٠

٠٠ أخرجت هدى الصورة التى رسمها يوسف لها ذات يوم فى بور سعيد كانت اللوحة ممزقة ، انكسر بروازها الخشبى وتناثر زجاجها يوم الرحيل المفاجىء ، وقعت منها تحت أقدام المهاجرين فى عربة النقل ، ويومها نجحت فى جمع بعض أجـزاء اللوحـة ، من وسط شظايا الزجاجوأقدام العيال والكبار، ووضعتها فى مظروف وذات ليلة حاولت أن تعيد أجزاء الصورة٠٠كلا الى مكانه ، لتلصقها وتعلقها على الجدار ، بعد ان صار لها نصف غرفة فى المهجر وعاونها أبوها ، وبعد ساعة ٠٠ ساعتين ، افلحا فى لصق ما لديها من أجزاء ممزقة ، لكن الصـــورة ظلت ناقصة ، كانت ذراعها اليمنى غـير موجودة ، مع جزء آخر من كتفها وصدرها ..

٠٠ بدت الصـــورة مشوهة ، فعـــادت تفتش فى المظروف المتهرىء ، وفى بقايا عفشهم ٠٠ وسألت أخوتها الصغار ، وســألت والدها ، لكن الأجزاء الضائعة من الصورة ظلت مفقودة .. فازداد شقاؤها ٠٠

٠٠ ٠٠

٠٠ ٠٠

كانت هدى لا تمل التطلع الى الصورة ، وتثق ان « يوسف » عندما يعود سيكمل لها الصـــورة ، أخبرته بعد وصولهم البلد ان الصورة تحطمت وتمزقت ٠

يومها قال لها :

- « غدا أرسم لك غيرها » ٠٠

.. لكنه انشغل مع زميليه بمشاكل البلد ، وبالدراسة فى كلية الهندسة ، وكان يبحث عن عمل فى وقت الفراغ ليواجه مشاكله الخاصة ، لكنهم أخذوه ..

.. احست بوطأة الانتظار ، فقالت لأبيها :

ـ « ماذا يقول لك قلبك يا أبى .. هل سيعود يوسف » ..

فقال أبوها :

ـ « فى حرب ١٩٥٦ .. غرقت بنا المدمرة يا ابنتى .. وايقنت اننى غارق لا محالة ، حتى لو انتشلنى الصهاينة ، كنت ساموت فى سجونهم ، لكننى عافرت مع الموج ليلة بطولها .. حتى انقذنى مركب صيد .. و .. » .

وغلبته الذكرى فصمت يسترجع احداثها .. ثم عاد يكمل :

ـ « وكان « مصيلحى » .. زميلنا المدفعجى النمرود مفقودا .. وظل غائبا عن عينى أربع سنوات .. ظننت انه غرق أو أحب الاقامة عند الصهاينة ، فهو زير نساء ، ويقولون ان عندهم من هذا الصنف الكثير ، وهو كان يقول انه يتمنى لو جندوا النساء معنا مثلما يفعل الصهاينة ، القصد ، لقد رأيته بعينى فى الترسانة البحرية ، يعمل معنا دون أن أدرى .. ثم نقل الى مكان آخر ، قبل ان أحال انا للمعاش .

ضحك الرجل ، وقال :

ـ « لم يكن « مصيلحى » بوابا مثلى .. كان يعمل فى شحن الذخيرة وصيانتها .. ولعله مفقود فى حرب ١٩٦٧ .. لكننى أعرف أنه بسبعة ارواح ، ولا استبعد أن آراه أمامى ذات يوم .. »

نظرت **هدى** الى أبيها ، بلا دهشة ، فقد عرفت طباعه . ما من مرة كلمته عن حنينها للعودة الى بور سعيد ، أو عودة « يوسف »

الا وحكى لها قصـــة زميله « مصيلحى » حتى حفظتها وملتها ، فتنهدت وانصرفت عنه الى « الجريدة » التى اعطـــاها لها فتوح أفندى ، وهو يقول لها :

ـ « لقد شوه ذلك الصحفى الصورة ٠٠ ولو كان « الأولاد » بيننا لتكفلوا بتلقينه درسا فى أصول الصحافة ٠٠ »

فتحت هدى « **الجريدة** » شدتها العناوين المثيرة ، وأعجبتها صورتها الملونة التى تحت صدر الصفحة ، وتمنت لو أن «**يوسف**» معها ليراها بالألوان .. لكنها خمنت انه كان سيغار عليها ويقول، كما كان يقول لها كلما رآها بالمايوه على الشط :

ـ « لا احتمل هذا ٠٠ ان الناس كلهم يرونك » ٠

آه ٠٠ كم كان رائعا حبك لى يا يوسف ٠

٠٠ ٠٠

٠٠ وقرأت « ٠٠ والبيئة البور ســعيدية بالذات لها طابع خاص ، فهى فى وجه البحر والأمواج وبواخر البضائع والسياح ، والمسافة بينها وبين أوربا ليست بالبعد الذى نظنه ، فرياح أوربا قد جعلت ثياب البنات تقصر وتقصر دون أن يدرى أحد ، كما انها تركت بصمات واضحة على سلوك الكبار والصـــغار بعد ان لفحت رءوسهم أبا عن جد منذ عشرات السنين ، وهذا يتكشف لنا واضحا فى وجهة نظر ((ابله هدى)) ـ كما يسميها الكل فى البلد لأنها المدرســـة الوحيدة هناك ، تقول « هدى » ، ويجب أن نلاحظ من البداية انها مثقفة الى حد كبير ، فقد كانت واضــحة وصريحة فى رأيها :

« أولا : أحب أن أقول ان الغالبية من المهاجرين البورسعيديين فضــــلوا الذهاب الى رأس البر ، ليـكونوا بجوار البحر ، فنحن

كالسمك ٠٠ نموت اذا عشنا بعيدا عن الماء ٠٠ ومع ذلك ، وهـــذا شيء يدهشني أنا نفسي ، فقد فضل حوالى (٥٠٠ مهاجر) غيرى ان نأتي الى هذه البلد » ٠

ـ ٠٠ ٠٠ ؟

ـ لماذا ؟! ٠٠ لا أعرف ، ربما لأننا جئنا اليه عام ١٩٥٦ ٠٠ يومها كنت صغيرة ، لكن أهلي أحبوا الفلاحين ، وربما ٠ وهـــذا سبب له قميته ـ لأن الخير هنا كان كثيرا عام ٥٦ ٠ فلم نجع ، ولم نحس بالغربة ٠٠ وان كان الأمر يختلف هذه المرة ٠٠

وأضافت هـــدى ، التي لا يخفى احساسها بعذاب غامض ، مسحة من جمال ملموس في عينيها السـوداوين ، وشـفتيها المزمومتين بعصبية بادية ، وتقاطيع وجهها عامة فرعونية ٠٠ على عكس أغلب بنات بور سعيد اللائي توارثن لون عيون الأوربيين فيما يبدو ٠

قالت هدى في سرها : « الوغد » ٠٠

ثم أكملت :

« قالت المدرســة الوحيدة التي تثق بها طالبات المدرسـة الاعدادية ـ ربما لأنهــا لا تدرس لهن ، فهي تعمـل بالمدرسـة الابتدائية » :

ـ « وثانيا : احب ان أقول ان وجود الطالبات في سن المراهقة وبهذه الكثرة ، وسط طلبة ريفيين في طباعهم وسلوكهم كان لابد ان يحدث هزة مفاجئة ، فتجربة الاختلاط في بور سـعيد لا تثير دهشة احد ، فهناك تقاليد متحررة الى حد ٠٠ اما هنا ، فانهـا أول مرة يجد التلاميذ أنفســهم مع تلميذات ومن ثم كان لابد ان تنفلت الأعصاب » ٠

وسألتها عن رأيها فى أحداث الشغب بالمدرسة ، فقالت :

ــ « شىء طبيعى للأسف الشديد ٠ فتصور تلميذا ريفيا مراهقا ، يسأله المدرس سؤالا ٠٠ وعادة يتلجلج فى الاجابة ، لأنه يحس بأن نظرات البنات موجهة اليه ، ويزداد ارتباكه لأنه يخاف أن فشل فى الاجابة ، أن يوبخه مدرسه أمام البنات ٠٠ وهذا ما يحدث عادة ، وعلى ذلك فلك أن تتصور مدى مايعانيه الأولاد هنا من حرج وضيق وقلق ٠٠ »

قلت لها : « أريد رأيك فى حكاية المينى جيب بالتحديد ؟!

فقالت : « لا يعنينى قصر الثياب أو طولها ٠٠ انما يهمنى أساسا ادمغة الناس ٠ البنت التى تستعمل دماغها جيدا ، يكون سلوكها مقبولا حتى ولو لبست الميكروجيب ، انها مسالة تخص ثقافة الأولاد وثقتهم بانفسهم قبل أى شىء ٠

ملحوظة : « ثوب أبلة هدى فوق الركبة ٠ انتهت الملحوظة »

وسألتها عن رأيها فى الجنس ، وهل هو مشكلة شائكة الى هذا الحد ٠٠ ؟

فقالت بهدوء شديد :

« الجنس ليس جريمة ، لكنه مشكلة ، ففى المدرسة ٦٠٠ ولد مراهق ، وبينهم ٢٠٠ بنت مراهقة ، انها لعبة الديوك والفراخ ٠٠ فى مجتمع مقفل من كل ناحية ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ؟ »

قالت بدهشة : « أنا لا أفكر فى ذلك ، ان الحرية الجنسية شىء لايخطر لى على بال ، فماذا تقصد من سؤالك لو سمحت ٠٠ ؟ »

قلت لها : أقصد أن أصل الى رأيك فى حل المشكلة ٠٠ ؟

قالت دون أن تتردد ، مما يدل على انهـا فـكرت طويلا فى المشكلة :

« نستبعد أولا انشاء مدرسة خاصة بالبنات ، كما اننى ضد أن يخصص الناظر سلما من سلالم المدرسة للبنات ، وآخر للأولاد ، أو فصلهم عن بعضهم فى طوابير الصـباح .. ان هذا كله يضـع خطا عريضـا تحت المشـكلة ويجعلهـا عالقة على الدوام برءوس الأولاد ..

.. ولا حل آخر غير أن يعتاد الأولاد والبنات على تواجدهم معا ، انها مسألة وقت كما ترى ..

سألتها : « لو أن لك أختا فى المدرسة .. هل كنت تجعلينها ترتدى ثيابا طويلة » ؟

قالت على الفور : فى المدرسـة .. نعـم أما خارج المدرسة فيجب أن يكون لها شيء من الحرية .. والاجعلتها بالكبت تنحرف وينفلت زمامها .. »

وكان سؤالى الأخير ، سببا فى ثورة بدت ظاهرة فى كلمات « أبله هدى » اذ سألتها :

ـ « مارأيك .. لو ـ مثلا خصصنا احدى الحصص لدراسـة الجنس .. كما يحدث فى بعض بلاد أوربا .. »

انفعلت هدى وهى تقول :

ـ « أنت لا تفهم ـ واعذرنى فى التعبير ـ طبيعة البنت فى مجتمعنا . البنت اذا أحبت فهى قد لاتصارح أمها بذلك ، والحب عندنا يساوى الزواج ، أو الانحراف الى علاقة سرية مع ولد .. وهى عادة تنتهى بفضيحة وجريمة قتل أو سجن أو .. الخ .

ـ هذا رأيك ·· كنت أريد رأيك كمدرسة ··

قالت :

ـ احس اننا فى مازق · فمن بورسعيد كمجتمع متفتح ، الى بلد ريفى متزمت ، وهذا يجعلنا فى ورطة اجتماعية خطيرة ··

قلت :

ـ ولو سألتك طالبة عن الجنس ·· ؟

قالت :

ـ المجتمع نفســه لا يبيح لى الصراحة معهـا فى الحديث ·· لكننى قد أجد الشجاعة لأحدثها بكل شىء على انفراد·· وكأصدقاء ·

قلت :

ـ وخطابات الحب الصريحة من البنات الى الأولاد والمدرسين أظنك قد قرأتها مع أعضاء اللجنة ·· أريد تحليلك لها · كامرأة من فضلك ؟

قالت :

ـ « لو كنت ـ اذا سمحت لى بالتعبير ـ أنت شخصيا · بنتا ، ترى أفلام السينما ، وبرامج التليفزيون وتسمع أغانى الغرام والهجر وسهر الليالى والطشت قاللى ···· الخ وأنت هنا ، حيث لا توجد دار للسينما ، أو ناد ، أو شاطىء للسباحة ، ولا يسمح لك بالتنزه ولو بمفردك ·· فماذا كنت ستفعل ··

قلت : « لن اكون بنتا ، فاريد ان اعرف رايك انت » ·

قالت :

ـ « ان الأمهات قد آن لهن ان يـكسبن ثقة البنات ، فربما

لو قالت البنت لأمها انها تحب ، دون خوف من العقاب المتوقع ، لخفت حدة انفعال البنات ، ولاستفدن من خبرة أمهاتهن ، وربما ـ وهذا احتمال غير مؤكد ـ كفت البنات عن كتابة مثل هذه الخطابات.

وقلت لها ، سؤال بعد الأخير هو :

ـ « هل تحبذين اختلاط البنات والأولاد فى المدارس ؟

قالت : « لا مانع اطلاقا ، لكننى لم أجرب مشاكله ، لأنه لم تكن فى بورسعيد مدارس مختلطة فمدارس البنات كانت متوافرة ، كما اننى منذ عملت مدرسة وأنا أتعامل مع الأطفال فقط .. ولكننا هنا لم نواجه مثل هذه المشكلة فالولد هناك لا ينظر للبنت على أنها « حاجة غريبة » كما يحدث هنا .. ان بنتا هنا صارحتنى بأن نظرات الأولاد .. مجرد نظراتهم ، تعريها ، وتخدش حياءها .

* *

« لم يكن صادقا فى كل شيء .. وكان ميالا للاثارة » فقد أغفل ذكر كل ماقالته له عن رأيهـا فى الحب من خلال تجربتهـا مع خطيبها يوسف . ولم ينشر لوحة رسمها يوسف لبعض أطفـال المهاجرين كما وعدها عندما جعلته يرى رسوم يوسف على جدران المدرسـة وعلى حائط الجامع ، ولكنه لم يشر الى ذلك ، فأحست بالخسارة .

كان يوسف قبل حرب ١٩٥٦ .. صغيرا مثلها ، كان يخاف مثلها ، وكان يجرى مثلها ، فى الشوارع اذا رأى الطائرات ، وكان يشتم الانجليز قبل رحيلهم ، وضرب ولدا كان يشحد قرشـا من عسكرى انجليزى ..

ولما كبرا .. وقبل أن يدخل يوسف الجامعـة ، جاءها ذات يوم ، وقال لها :

ـ « اجلسى .. أريد أن أقرأ لك شيئا كتبته » ..

وأراها كشكولا عن حرب ٥٦ ، وكان فى كل صفحة رسم بريشته عن المقاومة ، والبارشوتات التى سقطت فى « الجبانة » « والعريش » التى احترقت فى « المناخ » وعن أسطول الانجليز والفرنسيين « البرمائى » الذى نزل الشاطىء متخفيا بعلم « الروس » ٠٠

قالت هدى لنفسها : « كان أكثر صدقا من هذا الصحفى الذى أعلن فضائح البلد على الملأ دون هدف واضح ٠ هل كان يبغى الرواج لاسمه وجريدته ، أم كان يسعى من أجل حل معقول لمشاكل المهاجرين والفلاحين ٠٠ ؟

ازداد شوقها ليوسف ، فقامت ، وفتشت صرة حاجياتها ، قلبتها وبعثرتها ، حتى عثرت على مظروف أصفر باهت ، فتحته ، وأخرجت منه « كشكول حرب ١٩٥٦ » الذى تركه لها يوسف :

أيام كانت بلون الدم

« ٠٠ وطلع الصباح فى اليوم الثالث من أيام الدفاع المجيدة كان يوم الأربعاء ٧ نوفمبر ١٩٥٦ ٠٠ »

٠٠ « كان يجب أن يكون ذلك الصباح هادئا بالنسبة الى صباح اليومين السابقين ، مادام قرار وقف اطلاق النار قد دخل حيز التنفيذ منذ الثانية بعد منتصف الليل » ٠

« لكن الواقع كان غير ذلك ٠٠ »

« فقد اتضح للمدافعين البواسل ، أن العدو ، وان كان قد وقف فى أماكن داخل المدينة والبوارج ، وكف عن التقدم ، الا أن مدافعه لم تكف عن قصف المدينة ليلا ونهارا حتى صبغت الحياة كلها بلون الدم ٠٠

« أرأيت كيف يكون الغدر ، وكيف تكون خيانة العهد ٠

قالوا انهم أوقفوا النار ، ولكنهم واصلوا دعم مواقعهم ، ثم قذفوا البيــوت وهدموها .. » .

« ومع ذلك فأمى ترفض أن تهاجر .. وقالت انها تخاف على بيتنا ، فهو كل ما بقى لنا بعد وفاة المرحوم أبى ، ولو أننا هاجرنا فسنعود لنجد البيت قد تهدم أو سرق .. » .

« كانت تظن ــ أمى طيبة القلب ــ ان وجــودنا فى البيت سيحميه من مدافع المعتدين .. يا لها من أم طيبة وشجاعة » .

« .. ..

« لقد قال لى خالى ، انه لن ينسى الشاويش «حسين الأشقر» .. ويجب ألا ينساه فى زحام الأبطال أوفى غمرة احتفالاتنا بعيد النصر بعد اعادة بناء البلد كله .. لقد خرج « حسين الأشقر » على رأس جنديين ــ كان خالى أحدهما ــ للاستطلاع ، وتساقطت عليهم القذائف ، وأطاحت بصواب خالى ــ الذى صارحنى بأنه كان خائفا يرتعد يومها ، فأصيب اصابة خطرة ، وقدحمله « الأشقر » ، وظل يزحف .. يزحف به وهو ينزف ، ثم أصيب الأشقر اصــابة بالغة فى صدره ، فلم يترك خالى ، ولم يتوقف عن محاولة العودة بما لديه من معلومات للقوات المدافعة عن بورسعيد .. لكنه مات على بعد شارعين من مقرها السرى .. »

« ....

« ....

« **وفى الساعة ٨ صباح يوم الجمعة ٩ نوفمبر ٥٦** .. وصلت قوات البوليس الدولى الى بورسعيد ، وكان معهم نحو **١٥٠ صحفيا** .. وأراد الناس أن يشهدوا العالم على نذالة العدو .. فساروا فى مظاهرة ضخمة من الجامع ــ بعد صــلاة الجمعة ــ يهتفون بحيــاة

عبد الناصر ، وبسقوط ايدن ومولييه وبن جوريون ، وحمل المتظاهرون علم مصر ولكن رصاص العدو انطلق من كل صوب وسقط الجرحى والقتلى وسالت الدماء .. وفشلت قوات البوليس الدولى — وكان حجم هذه الدفعة من **القوات ١٧٦ جنديا** و ١٧ ضابطا ، يرافقهم الكولونيل « **هو** » **نائب الجنرال « بيرنز »** قائد قوات الطوارىء الدولية ، فشلت هذه القوات فى وقف المذبحة فى الوقت المناسب »

**

زرت خالى فى المستشفى . كان جرحه ينزف . اخفت امى دموعها عنه .. ..

« وجدت نفسى وحيدا فى ذلك اليوم .. وكنت قد اعتدت الخوف ، فلم أرتعد .. عندما رأيت خالى يعود الينا شهيدا .. لكننى بكيت لبكاء أمى ، فأنا أحب أمى ، وأحس احساسا قويا بأنها هى بذاتها وادى الحياة الخصيب ، حيث تجود بالخير والحب وتحتمل طيش أبنائها وشططهم بصبر لاينفد ، وتعانى آلام الحرب لأجلنا .. »

« .. ..

لاحظت هدى ان سطورا كثيرة مشطوبة (مشلفطة) فى مذكرات يوسف . فتوقفت عن القراءة وخمنت انه بكى وان دموعه كانت غزيرة يومها .. فتألمت من جديد واستسلمت لشوقها العذب ليوسف ..

وقالت : « لو أن الضابط وجدى ساعدنى فى الحصول على اذن بزيارة القلعة .. ؟ اخاف ان يكون الأولاد قد ماتوا .. دون أن ندرى .. »

١٥ ـ شكوى الرجل الفصيح :



.. فى الصباح تلكأ (عبده البورى) فى مخزنه . لم يكن البرد والمطر هما السبب ، ولا احساسه بالدفء وسط أكوام الخيش القديم الذى جمعه .. وانما كان السبب : عديلة ، حبه الذى ملك قلبه وأدار عقله .

.. كان قد أعد قطعة محترمة من « الأفيون » ليهديها لمخيمر .. قبل أن يحدثه فى رغبته بالزواج من عديله ، لكن مخيمر شكره وقال انه لا يتعاطى الأفيون .. وأحس عبده البورى ببواخة الموقف وعجز عن طلب يد عديله ..

.. وكان قد ألمح بالأمر الى الست أم عديلة ، ولكنها ضحكت وضربته فى صدره بيدها السمينة ، وقالت : « البنت صغيرة » ..

.. وكان غرامه بالبنت عديلة يبكيه بالليل ، ويجعله ينكفىء على وجهه ويتخيلها فى احضانه وسط الخيش القديم ، تحضنه ويحضنها ويقبلها وتقبله ، ثم يحس بتأنيب ضميره .. ويعتذر لها فى سره ، ويقول : « لا أقصد جرح طهارتك .. لكنها مقصوفة الرقبة البنت فاطمة التى تزوجت الموظف وكسرت قلبى .. »

وفى ليال كثيرة ، كان يحكى لعديلة ، عندما تزوره سرا وتجلس معه دقائق وتأكل معه البسبوسة والملبس ، عن حب البنت

فاطمة له ، ولا تغضبى منى يادوله – وكانت تقول : أعبدك ياسى عبده يابورى ·· ثم يضحك ساخرا ويضيف : لكنها مجنونة ·· تزوجت الأفندى ·· ولما عاتبتها قالت ان مابيننا كان لعب عيال · تصورى يا عديلة ·

·· وكانت عديلة تنصت لحكاياته ، وتتذكر مداعبات الأولاد لها يوم كانت صغيرة تلعب معهم الاستغماية ، وارادت أن تحكى لسى عبده ، أن خالد بن الشيخ تهامى عاكسها أمس عندما ذهبت لتستلف من أمه «شوية ملح» ·· لكنها ترددت وخافت أن يغضب منها ·· وفوجئت بيد « سى عبده » تمسح على شعرها فارتبكت ، وهمت بالنهوض والهرب منه ، لكنه ابتسم لها ، وقال انه يعزها ويضعها فى نن عنيه ، ثم أعطاها قرطاسا آخر من الملبس ··

·· ·· ·· ··

ومرت أيام وليال كثيرة ، دون أن يراها عبده البورى · كان يمر بحارتها وينادى « خيش قديم للبيع » ولكنها لم تفتح الباب ولم تطل عليه من شباك المندرة ، وقال فى نفسه : ان أمها هى التى تمنعها ، وقال انه غلط فى حق نفسه عندما ألمح لأمها بحبه للبنت·

·· ·· ·· ··

ونهار أمس ·· رأى الولد « حسان » يعرض بضاعته على عديلة وأمها ·· ورآه يعلق عقدا من الخرز بيديه فى رقبة عديلة ، وجن جنون عبده البورى ·· وأراد أن يضرب « الولد حسان » بائع الخردوات ، وفكر أن يكسر له صندوق بضاعته ويسيل دمه ، ولكنه فوجىء بحضور «مخيمر» ·· رآه بعوده الفارع ، وخيزرانته الطويلة، فابتعد فى صمت ولم يجد فى نفسه رغبة فى النداء على الخيش القديم ··

....

....

وهاهو اليوم ، يحس بأنه لابد أن يحسم الأمر .. وأن يعرف رأسه من قدمه .. واحتار .. **ماذا يفعل** ؟ أيذهب ويطلب يدها من مخيمر وليحدث ما يحدث .. أم يذهب للشيخ تهامى ويقبل يديه ويطلب مساعدته . ازدادت حيرته ، فخبط رأسه فى الحائط وأشعل لنفسه سيجارة ومدغ قطعة غير صغيرة من الأفيون .. واستطعم مرارتها .

.. تذكر فجأة « حمدى أفندى » طيب القلب ، الذى كثيرا ما استضـافه فى المقهى واجلسـه بجواره ، وطلب له مايريد من الشاى والقهوة والسحلب منذ جاء مع آخر فوج من المهاجرين .. ولم يكن عبده البورى يدهش لذلك الكرم من حمدى افندى ، فهو يعرف أن خيره هو سابق على الرجل ، اذ كان « يتوصى » به فى الأفيون ويتحمل تاخير الثمن ايضا ..

.. ..

فى الضحى ، كانت شوارع البلد وحواريها مليئة بالطين ، فخوض عبـــده البورى فى الوحـــل ، وسار بجوار الجـدران حتى لا يخونه صندله البلاستيك ، وفى « مقهى عبد الهادى » رأى حمدى أفندى ، وحده على منضدته ، وكان مشغولا عن الدنيا بأوراقه ..

أراد **عبده البورى** أن يداعبه ، توطئة لجره الى الحديث فيم جاء لأجله .. فهتف :

« صباح الفل يا حمدى أفندى .. »

لكن الرجل قابله بهزة سريعة من رأسه ، ولم يكلف خاطره

النظر اليه ولم يطلب منه أن يجلس ، وفكر عبده البورى أن يتركه، لكنه وجد نفسه يجلس ، ويبلع « بواخة » ما حدث من الرجل ، ووجد يده تمتد بقطعة أفيون وتتركها فوق الورق تحت أنف حمدى أفندى ·· ووجد نفسه يسأله :

ـ « ايه · عريضة ضد زوج ·· او ضد مطلقة ·· ياحمدى افندى ·· »

ثم أضاف :

ـ « والله وحشتنى قعدتك قدام محكمة بورسعيد ! »

نظر اليه حمــدى أفندى ، ·· من خلف نظارته الزجاجيــة الرخيصـــة ·· وكاد عبده البورى يضحك ، فأنف حمــدى أفندى عريض ووجهه الأصفر ممصوص ، وعروق رقبته بارزة ، وطربوشه مبقع ، (وبالطوه) فى لون الفأر الأجرب ·· لكنه ابتســم فقط وأقسم برحمة أمه أن « **حمدى أفندى** » **أعظم عرضحالجى فى الدنيا كلها** ، وأن عريضة بقلمه المبارك تهز العالم كله ، وتقسم ظهر أعظم عظيم ·· وأضاف بحماس :

ـ « والله انت ياحمدى افندى اجدع من يارنج ذاته ! »

وتوقع أن يرضى عنه **حمدى أفندى** ، وأن يعتدل مزاجه وأن يضحك كعادته ، ويعطيه الفرصة ليحكى له **قصة غرامه بالبنت عديلة** ويطلب منه أن يكتب رسالة لوالدها مخيمر ··

لكن **حمدى أفندى** فاجأه بقوله :

ـ « من فضلك ·· دعنى الآن ، فلدى عمل عاجل ·· »

بهت عبده البورى ، وانخرس ·· لـكنه عندما رأى الرجل يعود الى أوراقه وينهمك فى الكتابة قال ساخرا :

- « اهى عريضة تكتبها لربنا يا حمدى افندى .. »

فقال الرجل غاضبا :

- « بل للمسئولين يا غبى .. »

ضحك « عبده البورى » وقال :

- « الله يسامحك ، لكن .. لماذا .. هل تريد منهم مجارى للبلد أم يرصـــفون الشـــوارع .. أم يقبضون على الأسطى عطوة الغشاش » ؟

فقال الرجل :

- « بل أريد منهم الافراج عن الأولاد .. خاصة وانه تأكد أنهم لم يفعلوا شيئا ضد القانون .. »

وأخرس عبده البورى وانـكتم ، وأحس أنه هايف ، وأنه لابد أن يضرب نفسه عشرين قلما .. وهم بالنهوض .. ففـوجىء بالرجل يسأله :

- هيم .. لم تقل لى ماذا كنت تريد منى ياعبده يابورى ؟ .. خيرا .. »

فقال عبده البورى بصوت خافت :

- « خير ان شاء الله » ..

وشجعته نظرات الرجل ، فأضاف :

- « كنت أريد منك جوابا .. » .

فسأله متضاحكا :

- « هيه ؟ جواب غرام .. أم جواب لمصانع الخيش » .

فقال عبده :

- « **انا أصلا احب البنت عديلة ..** »

ضحك الرجل وقال :

- « **البلد تعرف أن مخيمر يرفض زواجها منك ..** »

فقال :

- « **قلبى يعشقها ياحمدى أفندى ..** »

قال حمدى أفندى بمرح :

- « **لئن كانت « عـــديلة » ذات بث ... لقـد علمت بأن الحب داء .**

ألم تنظر الى تغيير جسمى ... وانى لا يزايلنى البكاء .. »

وضحك ملء قلبه العجوز ..

غضب منه عبده البورى ، وقال :

- « **تسخر منى ؟** » ..

طيب خاطره ، وطلب له شايا على حسابه ، وقال :

- « **ياعبيط ، هذا شعر الغرام ، وقصص الحب عند العرب .. أيام ليلى والمجنون ..** »

وقال عبده :

- « أريدها على سنة الله ورسوله .. »

فقال حمدى أفندى .

- « **يامنيتى أنت مقصودى ومطلوبى ... وانت رغمـا من الأعداء محبوبى ..** »

وعاد يضحك ثم نظر الى أوراقه ، وقال :

ــ « دعنا من غرامك لحظة ، واسمع ماكتبته ، وقل لى رأيك » •

ثم وضع نظارته على عينيه وفرد العريضة وقرأ :

ــ « أما بعد • فلقد كان الفتيان الثلاثة ، من خيرة أولاد البلد ، ولا هم لهم غير اصلاح حالها ، واتمام خلاقها ، وأخلاقها ، ويشهد الله أنه مهما شرقت بهم افكارهم او غربت ، فانهم كانوا ــ وأنا اقسم على صحة قولهم وأشهد به ــ يقولون لى : « ياحمدى أفندى • ان العالم بوجه عام تجتاحه موجتان جبارتان : موجة الفكر الماركسى الذى يقدم مفهوما علميا يفسر للفرد كل شيء ابتداء من اصل الوجود وانتهاء الى تحليل التاريخ وعلاقات الانتاج•• ثم موجة الفكر الغربى بجبروته الراسمالى الاستغلالى وتاريخه الاستعمارى •• ولقد كان الفتيان الثلاثة يميلون فى الواقع الى الفكر الذى يدعو للاشتراكية والعدالة الاجتماعية •• الى آخره ، لكنهم كانوا ايضا يوافقون الشيخ تهامى عندما يقول لهم : ان الاسلام قدم للانسان منذ اكثر من ألف وأربعمائة سنة ، تفسيرا كليا شموليا للحياة •• وزود هذا الانسان باعظم المفاهيم التقدمية فى العدل والحرية ، والمساواة •• كما يحثه على التطور ، والذود عن وطنه •

وأشهد كذلك ــ وشهادتى خالصة لوجه الله ــ أن الفتيان كانوا أحيانا يجادلون الشيخ تهامى ويحاولون افحامه ببعض الحجج والأسانيد ، وأن الشيخ تهامى كان يقول لهم ان مانراه من مظاهر دخيلة على الدين ، يجب ألا تعمينا عن أن هذا الدين يدعونا الى الاصلاح فى الأرض •• والى المحبة •

•• وأشهد أيضا ، وشهادتى هنا شهادة عبد فقير لا يبغى غير وجه الحق ، ان الفتيان كانوا يقولون للشيخ تهامى ان هناك اناسا يشوهون الدين ويقولون انه دين الجوارى والقصور والثياب

الطويلة والركون الى الكسل فى المساجد ، كان الشيخ لايفقد هدوءه ويقول لهم : هؤلاء هم الأدعيـاء ، والدين فى حقيقتـه دين القوة والعمل والنظام ، وأنه ليس دين الرهبنة والجلوس فى المساجد ليل نهار . « الذين آمنـوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله باموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله .. »

لهذا كله فانى باسم فقراء البلد ، والذين علمهم الفتيان الثلاثة كيف يوقعون بالقلم ــ بدلا من الختم والبصمة ــ فى دفاتر الجمعية الزراعية وبطاقات التموين ، وباسمى انا شخصيا كمواطن صالح، ارفع اليكم هذه المظلمة الموضحة فيما يلى :

« يا أيها السيد الكبير ، يا أعظم العظماء ، ياقائدا على ما كان وما لم يكن ، أنت أبو اليتامى وأخو المنبوذين ، فدعنى أجعل لك فى هذه الأرض اسما جديرا بما هو خير من كل شر ، يا قائدا بغير عيب ، يا عظيما خالصا من الدنايا ، أنت يامهلك الباطـل ومثبت الحق ، أنبذ الشر وأرفع الظلم الذى وقع علينا ، وانظر كيف حملنا بالشقاء ، وانظر الى ما فى من ضعف .. » .

« أيهـا السيد الـكبير انك جرىء القلب ولـكن تجاوزتـك الرحمة ، يا أيها العظيم كن الملجأ لنا ، ووجه لسانك للحق ، ولا تتبع طريق الضلال ، ولا تقل زورا وراقب حكامك وحاشيتهم .. »

« ايها السيد الكبير ، قلت لنا انك ابن وصديق للفقراء ، فاعلم أن املاك الفقير انفاسه ومن اخذها منه فقـد كتم أنفاسه ، لقد عينت لتسمع الشـكايات وتفصـل بين الخصـوم وتقضى على اللصوص ، لقد وضع الناس فيك ثقتهم ، فاصبحت معتديا ، واقمت بينك وبيننا سدا منيعا من حكامك ومرءوسيك .. » .

« أيها السيد الكبير ، أقم الحق ، أقم الخير ، ان السنة الرجال

موازينهم، اعلم هذا جيدا، ولا تحجب وجهك عمن تعرف ولا تتعام عمن ترى ولاترد من يسألك ..

« .. **وأهل البلد جميعا ـ الموقعون أدناه ـ يسألونك أولادهم، وانى لألتمس منكم العفو عنهم، وانقاذهم من أيدى من لايرحمون من رجالك غلاظ القلب..« هداكم الله وهدانا الصراط المستقيم »** .

* *

رفع **حمدي أفندي** رأســه عن أوراقه ، ووجهه مبلل بحبات العرق رغم برودة الجو، ونظر الى عبده البورى مستطلعا رأيه فى العريضة ، لكنه لدهشته لم يجده .. فأدار عينيه فى المقهى باحثا عنه غاضبا لقيامه وعــدم احترامه للعريضـــة ، واذا به ينتبه فجأة ويسمع ضجيجا فى الشارع ، فهرول الى باب المقهى ، فرأى جمعا من الناس يحاولون تخليص « الولد حســان » بائع الخردوات من يدى عبده البورى الذى يصيح :

ـ **« دعونى أشرب من دمه ابن الزانية .. »**

* *

.. فى نقطة البوليس ، أنب الضابط وجدى ، عبده البورى على تهوره ، وجعله يصالح الولد حسان ، ثم أطلقهما ..

.. لكن غرام **عبده البورى بعديلة** بنت مخيمر صار معلنا فى البلد كله ، وغضب مخيمر وأقسم ليؤدبن عبده البورى .

* *

.. وفى المندرة ، كان **الشيخ تهامى وفتوح افندى وأبله هدى وأحمد عصفور** ، يناقشون فكرة **حمدى افندى** بجمع توقيع أهــل البلد بما فيهم الضابط وجدى على العريضة .. لكنهم فوجئوا بفتوح

أفندى يعترض ويتهم حمدى أفندى بأنه نقل أهم مافى عريضته عن « الجريدة » ومن مقالة للكاتب فلان الفلانى بالتحديد ، فهب فيـه حمدى أفندى قائلا :

ـ « **وماذا فى ذلك يافتوح أفندى ، الاقتباس ليس جريمة ٠٠، ثم ان الاعتراض من حق (بلطية) وحدها فهى التى دفعت لى أجر هذه العريضة** »

فقال فتوح أفندى :

ـ « انه نقل حرفى ٠٠ وليس اقتباسا ٠٠ »

فقال حمدى أفندى :

ـ **لا ضرر ٠٠ طالما انه يعبر عن فكرتى التى أعجزنى الخوف عن التعبير عنها ٠٠** »

ثم ٠٠ وقبل أن يجد الحاضرون حلا لهذا الاشكال الطارىء ، اختطف حمدى أفندى عريضته ، وخرج غاضبا من المندرة ٠٠ وتركهم يشيدون به **وببلطية** ٠

* *

٠٠ فى منتصف الليل ، سمع الجيران **صراخ عبده البورى** ، وهرول بعضهم لتخليصه من يدى مخيمر الذى كان يلسعه بخيزرانته ويصفعه بيده ٠٠ وهو يقول :

ـ « **عامل رميو على بنتى يا جربوع ٠٠** »

فقال عبده البورى :

ـ « **أريدها على شريعة الله وسنة رسوله ٠٠** »

فقاطعه مخيمر :

ـ « **انكتم لادفنك فى الخيش ٠٠** »

وحاول الحاضرون تهدئة مخيمر ، فقال أحدهم :

ـ « **الولد بيحبها ٠٠ ولا يقصد الاساءة اليك** »

فاحتج مخيمر :

ـ « **جعل سيرتها على كل لسان ٠٠** »

فقال أحدهم :

ـ « **معذور والله ٠٠ فابنتك بارك الله فيها اجمل من قمـر اربعتاشر ٠٠** »

وتغاضب مخيمر ، لكنه لم يلم القائل لكبر سنه ، ولأنه أحس ـ برغم ضيقه ـ بالرضا أنه أنجب بنتا أحلى من القمر ٠٠

٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

وقرب الفجر ، كان مخيمر يدخل حجرة زوجته **أم عديلة** ، محاذرا ألا تصحو البنات ، ولـكز أم عديلة بأصـبعه ، فتصنعت النوم ، وهى التى كانت ترقبه بطرف عينها منذ فتح باب الحجرة ، ثم نهضت أخيرا وهبطت الى الحصيرة ، وجعلت من أحد « المساند » مخـدة تحت دماغ مخيمر ، واستسلمت له دون كلمة ، وقالت فى سرها : سترى بسيمة بعينها ٠

٠٠ وأخيرا قال لها مخيمر :

ـ « **البنت عديلة كبرت يا ام عديلة ٠٠** »

فقالت محاذرة اغضابه :

ـ « **ضفرها بالف راجل ٠٠** »

فلكزها فى لحم مؤخرتها ، فتدللت وانكمشت فى حضنه ٠

١٦ ـ العبور بقرش :

« اما يكفى ما دفعناه حتى الآن ؟! »



جلس « خالد » بجوار « نور » ·· دون خوف · كان والده الشيخ تهامى قد اصطحبه معه لزيارة نور ، أعطاه قرش صاغ ، وطلب منه أن يشـــترى ملبسا وكرملة ، ليأكلهـا مع نور ، وهما يذاكران معا دروسهما ·

·· كان خالد قد قال لأبيه ان « نور » فاتته دروس كثيرة وهو غائب فأمره باخذ كتبه وكراساته ليذاكر له ما فاته ··

قال نور : « أبله هدى ذاكرت لى الحساب »

فقال خالد : « نذاكر درس القراءة ·· أبله هدى قرأت لنا اليوم صفحة ١٦٢ »

ثم فتح كتاب « تعال نقرأ » على الصفحة المطلوبة ، وأخــذ يقرأ ، ونور يردد وراءه فى نغم وايقاع حفظاه من أبله هدى :

صاحب القارب

الطفل : ياصاحب القارب · يا صاحب القــارب · أريد أن أعبر · أريد أن أعبر · للشاطىء الآخر ·

صاحب القارب : بالقرش ياولدى · بالقرش ياولــدى · ان شئت أن تعبر · ان شئت أن تعبر للشاطىء الآخر ·

الطفل : عندى لك القرش · عندى لك القرش · دعنى اذن دعنى اذن أعبر ·· للشاطىء الآخر ··

صاحب القارب : قدم لى القرش ، قدم لى القرش ، وانزل الى القارب · وانزل الى القارب ·· أنقلك للشاطىء · أنقلك للشاطىء ·· للشاطىء الآخر ··

❋ ❋

قالت **بلطية** ، وهى تعد فنجان قهوة للشيخ تهامى :

ـ « أما عرفت · لقد اشتريت « راديو ترانزستور »

فبارك لها الشيخ تهامى وسألها :

ـ « متى حدث هذا ·· »

فقالت وهى تضع أمامه فنجان القهوة السادة :

ـ « أخذته من الأسطى عطوة ·· »

وضحكت ·

فاستعاذ الشيخ من الشيطان الرجيم ، وقال فى سره :

ـ « وهل وصل اليك عطوة أنت الأخرى يا بلطية ·· »

ثم قال :

ـ « انه رجل بطال يا بلطية ·· »

فقالت وهى تفتح الراديو :

ـ « هل تسمع النشرة ·· »

ثم أضافت ، بينما أغنية «**ع الضيعة يا امه على الضيعة**» تنطلق من الراديو :

– « قال عطوة أنه سيهدم داره القديمة ، ويبنى مكانها عمارة من ثلاثة أدوار وانه سيوسع دكانته ويتاجر فى التليفزيونات ٠٠ »

قال الشيخ تهامى :

– « لا يعـلم ســوى الله حدود طمع عطوة ٠ لقد باع نفسه للشيطان ٠٠ »

فقالت بلطية :

– « لقد نسيت ٠٠ كيف حال الست أم خالد ٠٠ »

فقال الشيخ :

– «بخير ٠٠ منذ ماتت أمها وهى تبكى ٠٠ »

فقالت بلطية :

– « خبطتان فى الرأس ياشيخ تهامى ٠٠ أخوها وليد ، ولا يعلم الا الله بحاله ، وأمها ، الست الطيبة ، تركتها ، والله لقد شعرت بالحزن عليها وكأنهـا أمى ٠ سيحاسبنى ربنا لأنى أوقعتهـا فى الخناقة ٠٠ »

فقال الشيخ :

– « كانت صبورا ٠٠ ودودا ٠٠ »

وصمت فجأة ، فقد قال المذيع بحماس يلفت النظر :

« وقد أذاع المتحدث العسكرى بلاغا جديدا بتفاصيل عملية العبور التى قامت بهاوحدة من قواتنا الخاصة، وكبدتفيها العدو خسائر كبيرة فى المعدات والأرواح ، وقال البيان ان قواتنا قد عادت بأسير من أفراد العدو ، كما أنها عادت بفردين من افرادها جريحين ولم تتركهما على الشاطىء الآخر للقناة ٠٠ »

هذا وسنوافيكم – سيداتى سادتى – بتفاصـيل جديدة فى وقت لاحق ٠٠ »

زغردت بلطية ، فأربكت الشيخ تهامى والولدين خالد ونور ، وقالت :

ـ « يانهار أبيض ٠٠ ياولاد ٠٠ »

واجتمعت المهاجرات من كل الغرف ، وزحمن حجرة بلطية، سألتها احداهن :

ـ «خيرا يا بلطية ٠٠»

فقالت :

ـ « جيشنا عبر القنال ياولاد ٠ يانهار أبيض »

كانت فرحتها غامرة ، وطاغية ، لدرجة أنها ظنت ، بل أحست يقينا بأن زوجها ذاته حتما سيعود بعد غيبته ، وستراه وتلمسه ، وتضمه الى صدرها ، وأن كل احزانها ستنتهى ، وأن نور سيصلب حيله ، ويشفى نهائيا ، ويعود الى المدرسة ٠٠

لكن هدى (التى كانت قد ارتدت ثيابها استعدادا للذهاب الى اجتماع لجنة المهاجرين ، فى مكتب الضابط وجدى) ، قالت لها :

ـ « لاتهولى يا بلطية ٠ انها عملية عبور ، يعنى اشتباك عادى ٠٠ »

٠٠ صاحت « بلطية » ، مدافعة عن كل أفراحها التى اجتاحت كيانها ، وزلزلتها :

ـ « اقول لك الجيش عبر القنال وسيؤدب أولاد الكلب ٠٠»

فقال الشيخ تهامى :

ـ يسمع منك ربنا يا بلطية »

ثم قام ، وقال لهدى :

ـ « **خذيني معك يا ابنتي ٠٠ فقد آن ميعاد الاجتماع ٠٠** »

وقال لابنه خالد ، قبل أن ينطلق :

ـ « **احفظ الدرس أنت ونور ، ثم عد للبيت٠ لاتتأخر كثيرا**»٠

* *

قال خالد :

ـ « **أريد أن أعبر ٠ أريد أن أعبر للشاطئ الآخر ٠٠** »

فقال نور :

ـ « **بالقرش ياولدى ٠٠ بالقرش ياولدى ان شئت أن تعبر ٠ ان شئت أن تعبر للشاطئ الآخر ٠**

فقالت بلطية نائحة :

ـ « **أما يكفي مادفعناه حتى الآن ٠٠** »

ثم أحست بأشواقها تنطفيء، واستيقظ احساسها بالقهر الذى يغلبها على أمرها ، وخافت من ظنونها التى تدور حول غياب زوجها كل هذه الشهور ٠٠ خافت أن يكون قد مات ، ثم تساءلت بخاطر فاجأها دون توقع : « **أيكون هناك ٠٠ مثل الأولاد ٠٠ فى زنازين القلعة ، وأنا لا أدرى !** »

أحس خالد بالخوف من بلطية يعاوده ، عندما رآها تنقلب من الفرح الى الغم ، وقد احمرت عيناها ، وامتدت يدها تغلق الراديو بعنف أوقع الجهاز الصغير ، فقال لنور بصوت خافت :

ـ « سأعود للبيت ٠ أتأتى معى لنذاكر هناك ٠٠ »

فسأل نور أمه :

ـ « أذهب مع خالد ٠٠ »

فقالت بنفاد صبر :

– « غورا من وشى ٠٠ فى ستين داهية »

وخرج الولدان يهرولان ، الى الطريق ٠٠

❋ ❋

بعد وقت طويل ، جاء الليل ، لف البلد فى ملاءة سوداء ضخمة مخيفة ، وأطل عليها بنجومه اللامعة كعيون العفاريت ٠٠

وفوجئت بلطية بمخيمر أمامها ، بطوله الفارع ، ووجهه الناحل، الممصوص ، وعيناه تطلان عليها برغبة عارمة ٠٠

ضحكت ٠٠ وجدت نفسها تضحك من شدة غلبها ، وقالت متضاحكة :

– « **عدت يا ذيل الكلب ٠٠** »

فلكزها مخيمر بخيزرانته فتقصعت ، وقالت بدلال تحس أنها لا تبخل به على مخيمر دون غيره من الرجال :

– « **لا أقصـــد اهانتك ٠ لكنهم يقولون : ذيل الكلب عمرهماينعدل ، ويموت الزمار ٠٠** »

فجلس بجوارها ، واحتواها فى صدره بشراهة ، وهو يكمل لها المثل الشائع : « **وهو يزمر** » ٠٠ ثم التصق بها ، وقال :

– « **شئ غريب ٠ وهبنى الله أم عديله ، ولها أرداف ليست لامرأة غيرها فى البلد ، وبسيمة ، الغزالة التى تفعل معى ما لاتفعلينه أنت نفســك يا بلطية ٠٠ لـكننى أحس دوما بالشوق اليك ٠٠ لا أعرف لماذا ؟! ٠٠** »

أكل نور فى دار الشيخ تهامى ، من طبق واحد ، مع خالد ،

أكل كما لم يأكل من قبل وشبع ، حتى أحس بثقل بطنه وخاف ان هو وقف ، أن يقع على الأرض ٠٠ وسرى الدفء في جسده ، ورغب في النوم ٠٠ فأراد أن يطلب من خالد أن يصحبه الى قرب المعسكر ، لأنه يخاف من الكلاب والظلام ، لكنه أغفى قبل أن يتكلم ٠٠ واهتز رأسه ، انحنى للأمام حتى لامس ذقنه الصغير صدره ، ثم ارتفع رأسه في خضة سريعة ، أحس بها في نفسه دون أن يدركها ، ولاحظت الست أم خالد أنه نام وهو جالس ، فحملته برفق الى فراشها ، وأرقدت خالد بجواره ، ولفتهما جيدا بالغطاء ، واختلطت أنفاس الولدين ، وتعانقا ٠٠ وضع كل منهما ذراعه على الآخر ، دون أن يدريا ٠٠ وناما بعمق ، وابتسما بفعل أحلام غير واضحة طافت برأسيهما ، ونظرت اليهما الست أم خالد ، وأحست بكثير من الرضا والاطمئنان ، واعترفت في سرها بأنها يجب أن تنسى مافعلته بلطية ، وأنها كان يجب أن تنسى ذلك منذ شهور ٠٠

٠٠ فهذه هي الأصول كما تعلمتها من أمها ، وزوجها الشيخ تهامي ، وأخيها وليد ، الذى تأخر أكثر من اللازم ٠

* *

قالت بلطية :

ـ « أخاف على بنات المدرسة من عينيك الزائغتين ٠٠ »

فضحك مخيمر ، وأشعل لنفسه سيجارة وقال :

ـ « يا شيخة ٠٠ حرام عليك ٠٠ »

فأخذت منه السيجارة ودخنت باشتهاء ، وقالت ضاحكة :

ـ « عطوة سيفتح دارا للسينما في البلد .. »

دهش مخيمر ، وقال :

ـ « من قال لك ! ٠٠ »

لكنه مالبث أن رأى الراديو الترانزستور الصغير عندما فتحته بلطية ، واهتزت على نغمة « أيوه ٠٠ آه ٠٠ » وطرقعت بأناملها ٠٠ وفهم مخيمر كل شئ ٠٠ فصمت ، ثم نهض وقال :

ـ « خذى بالك من عطوة يا بلطية ٠ انه خطر ٠٠ »

فاتت بحركة مكشوفة بأصبعها ، وقالت :

ـ « لاتخف على ٠٠ »

وخرج مخيمر مستترا بالظلام والصمت ، وظلت بلطية وحيدة فى حجرتها ، وطال انتظارها لنشرة الأخبار الجديدة ٠



١٧ ـ ليلة الغناء والرقص :

« قول للقمر لو فات .. حنعـدى ونحارب ! .. »



ارتفعت فى البلد عدة بيوت جديدة ، بنى أحد المهاجرين بيتا من دورين ، وأجر شققه للمدرسين فى المدرسة الاعدادية ، وأعلن أنه سيستقر نهائيا فى البلد ، فقد باع أنقاض بيته فى بورسعيد وصفى أعماله ، وفتح محل بقالة نظيفا فى الدور الأرضى من بيته الجديد ٠٠

وأحس البقالون فى البلد بالمنافسة وحاولوا الصمود ٠٠

وبنى فتوح افنـــدى ، دورا جديدا فوق منزله، وقال انه سيزوج عصـام بعد عودته ـ فى شقة أثثها له بنفســه ، وأجر الشقتين الأخريين لمهاجرين من السويس ، اشيع انهما يتاجران فى الحشيش ٠

ولكن أعلى بيت جديد فى البلد ، كان بيت « الأسطى عطوة » الذى بنى عمارة من أربعة طوابق ، غطت بارتفاعها وألوانها الصفراء الجديدة ، على مئذنة الجامع ، وفى الدور الأرضى ، فتح محلا كبيرا ، علق على واجهته يافطـــة مساحتها متران فى نصــف متر ، وكتب عليها « خلوصى ـ الخطاط الشهير فى البندر » بخطه الجميـــــل : « ورشة التليفزيون والكهرباء والسيارات والراديوهات ، لصاحبها : عطوة محمد خضر « سجل تجارى رقم (١٠٠٨) تليفون : ٠٠٠٠٠ » كانت هناك مساحة خالية لرقم التليفون المتوقع ذات يوم ، اذا دخلت خطوط التليفونات البلد ، وقال الناس : « **عطوة ٠٠ راجت حاله ٠٠ وكتر ماله ٠٠ بالزور ٠٠ »**

لكن أحدا لم يجرؤ على معاداته علنا ، فقد حرص الجميع على تبجيله واحترامه ، بل صار « عبد الهادى » يفخر بأن **عطوة ،** يجلس فى « مقهاه » ، وقد أعد له « قعدة » خاصة ، فى ركن هادىء من المقهى ، فاشترى منضدة مغطاة بالزنك ، ونصف دستة مقاعد خشب جديدة ، لزوم « الباشمهندس عطوة » ورفاق جلسته كل ليلة ٠٠ من كبار تجار البهائم والقطن والملح ، وموظفى الجمعية الزراعية الذين راجت تجارتهم فى انصبة الفلاحين من **((الكسب)) بعد ذهاب ((الأولاد))** ٠

وكان بعض مدرسى المدرسة الاعدادية وكلهم أغراب عن البلد ، كانوا يضيقون من مللهم ولعب الكتشينة وحدهم ، فكانوا ينضمون لركن « عطوة » فى المقهى ، واعتادوا الذهاب لمحله لقضاء وقت متجدد معه لسماع الراديو ، أو مشاهدة التليفزيون أو للدردشة معه فى أمور الدنيا ٠٠ والبلد ٠

* *

لا يدرى أحد من المهاجرين كيف حدث هذا ، الا أنهم بعد شهور ، اكتشفوا أن كل أجهزة التليفزيون التى كانت ضمن عفشهم الذى جمعوه على عجل يوم الرحيل ، قد اختفت من عندهم ، وأنهم باعوها ،واحدا بعد الآخر ، سرا الى « عطوة » ، الذى عرضها فى فترينات محله الكبير ، وعلق فوق كل جهاز ورقة بالثمن نقدا وبالتقسيط ٠ كان المهاجر اذا قرصه الجوع ، وأحوجه أولاده للنقود ، يبيع أى شىء لديه ، السرير ، الدولاب ، المقعد ، البناطيل القديمة ، الراديو الترانزستور ، ولم يكن أحد يحس بالفضيحة، لأن هذه الأشياء تختفى فى بيوت من يشتريها نقدا أو بالمبادلة ٠

لكن ، التليفزيونات لم تجد بائعا جاهزا بالنقود اللازمة لثمنها ، فظلت مركونة وقتا طويلا فى فترينة « عطوة » وأشاعت

الفضيحة فى البلد ، وأحس المهاجرون بخجل شديد ، من أنفسهم ومن البلد ، لكنهم عملوا بنصيحة الشيخ تهامى : « **الصـــبر خير دواء** » ..

ويوما بعد يوم .. صار المهاجرون يحسون بفداحة الغربة .. اشتد بهم الحنين الى العودة الى دورهم .. الى بلادهم .. فهناك ، حتى لو ساروا عرايا فى الشوارع أو تسولوا رغيف الخبز ، لا يحسون بالخجل ، لأنهم ساعئتذ يكونون فى بلدهم .. وسط أهلهم ..

لكنهم ، ما لبثوا أن أحسوا بأنه قد أتيح لهم أخيرا أن ينسوا خجلهم من بيع تليفزيوناتهم وراديوهاتهم وثيابهم القديمة والجديدة . عندما فوجئوا بعربة حنطور ، تلف البلد ، فوقها ميكرفون يذيع أغنية لفرقة « **ولاد الأرض** » السويسية .. مسجلة على شريط من احدى الاذاعات .

« **فات الكتير يا بلدنا ما عاد الا القليل** » .

ودهشوا .. فقد كانت الأغنية بصوت احدى المطربات .. لكن المسألة لم تستغرق فى أفواههم دقيقة واحدة ، اذ قطع عليهم كل مناقشة صوت « عطوة » الذى كان يجلس داخل الحنطور ويذيع على أهل البلد نبأ هاما :

- « يسرنى أن أعلن لأهل بلدى الكرام .. اننى ، وبشــعور وطنى فياض ، قد اتفقت مع فرقة « ولاد الأرض » المناضلين من أبناء السويس ، على اقامة حفل ساهر ، فى مقر دار السينما الجديدة التى سأفتحها من أجل الترفيه عن أبناء بلدى الكرام .. فسارعوا الى حجز مقاعدكم .. المقاعد محدودة ، والتذاكر محدودة .. يا أهل بلدى الكرام يسرنى أن ... »

ودار الميكرفون فى شوارع البلد معلنا النبأ الهام ..

وفى ليلة ١٠ يونيه سنة ١٩٧٠ ، جـــاء « الكابتن غزال » وفرقته « ولاد الأرض » الى البلد٠رآهم العيال والكبار ٠٠ ودهشوا لنحافة الرجل ورفاقه ٠ كانت ذقونهم غير حليقة ، وجوههم السمراء شاحبة ، ثيابهم زيتية اللون ، جزمهم مغطاة بالتراب ، وليس معهم غير آلة السمسمية وطبلة٠٠وناى ورق٠٠ليس معهم تخت ، لم يكن معهم غازية ، لم تكن معهم عربة ، أو حتى أتوبيس ٠ كان واضحا أنهم جاءوا من بعيد ٠٠ ربما من السويس سيرا على أقدامهم ، فقد كانوا مجهدين متعبين ٠

استضافهم المهاجرون فى غرفاتهم الضيقة ، واقتســموا معهم الطعام ٠٠ لكن الضابط وجدى ، وهدى ، والشيخ تهامى ، وفتوح أفندى ، وأحمد عصفور مالبثوا أن أسرعوا الى المعسكر ، استضاف كل منهم واحدا أو اثنين من الفرقة ٠

واعتذر الضابط وجدى :

ـ « لم أكن أعرف أنكم ستحضرون الليلة ٠٠ »

فقال كابتن غزال أكبرهم سنا وأشدهم اجهادا :

ـ « كنا فى جولة للترفيه عن أهلنا من المهاجرين ، وجـــدنا أنفسنا بالقرب من البلد فجئنا اليكم ٠٠ »

وهرول عطوة الى دار الضابط وجدى ، وانحنى وقال مبتسما فى مداهنة :

ـ « لقد أعددت كل شىء للحفل ٠ دفعت عربونا لثلاثة حناطير لاحضاركم من « الكفر الشرقى » ٠٠ ما كنت أحسب أنكم ستأتون قبل وصول الحناطير ٠٠ »

نظر اليه « **غزال** » واعتصم بصمته ٠ فقد أحس بأن « عطوة » مراوغ ، ولئيم ٠ وقال الضابط وجدى :

ـ « **من قال لك تبيع تذاكر الحفل يا عطوة ٠٠**

فأسرع يدافع عن نفسه :

ـ « **التذكرة بـ ١٣ مليما فقط ٠٠ يعنى سأخسر الكثير من أجل البلد** » ٠

فنهره الضابط قائلا :

ـ « **أما تكف عن الكذب يا رجل ٠٠ أولا ٠٠ من لديه ١٣ مليما فكة ، فهذه لعبة لتحصل على قرش ونصف قرش من كل فرد ٠٠ ثانيا : الحفل كما اتفقت اللجنة ، بالمجان ، وليس بالأجرة ، ثالثا : لقد كنت أظن أنك تريد اثبات حسن نيتك فعلا ، رابعا : اذهب من أمامي واحترس لنفسك ٠٠ خذ حذرك وحاسب فى كل تصرفاتك يا عطوة ٠٠** »

وانسحب عطوة مكتوما ، مهانا ، لكن رغبته فى رد الصاع صاعين للضابط وجدى كانت تشعل الحقد فى أعماقه ٠

وبعد ساعتين ، كانت الفرقة تردد فى البلد ايقاعا حلوا ، مليئا بالأسى والشجن والصدق ، و « **ولاد الأرض** » يغنون للفلاحين والمهاجرين :

« **يا حمام ٠٠** »

« **روح اوام ٠٠** »

« **لجمال ٠٠** »

« **بوس خدوده ٠٠** »

« **وقوله له جنوده اشتاقوا** »

« **والله للقتال ٠٠** »

وهللت بلطية ، وتمنت لو قامت لترقص أمام « ولاد الأرض » ، لكن هدى أجلستها عنوة ·

* *

وغنى الرجال :

« والله حترجع تانى لبيتك »
« وبنصرك تتخايل »
« وتحول من غيطانك »
« وترد الجمايل »
« من فوق شجر الجناين »
« تشاور لك السفاين »
« اللى ماشيه بتتمايل »
« فى البحر والكنال ·· »
« والله ·· »
« ياريس البحرية يا مصرى ·· »
« يابو الدراع مصرى »
« يابو الكفاح مصرى »
« هات الدراع ·· »
« هات لى دراعك هات ·· »
« دابحرنا ·· بحرنا ·· »
« وابن البلد صياد ·· »
« قول للقمر ·· »
« قول للقمر لوفات »
« أيد للبنا ·· للبنا »
« وايد ع الزناد تصطاد ·· »

« قول للقمر لوفات »

« ح نعدى ونحارب » .

وانفلتت بلطية من يدى هدى ، كانت قد امتلأت باحساس أقوى من كل شىء ، احساس غامر ، بالحنين والضـياع والغربة والشقاء ، أرادت أن تبكى أو ترقص أو تمرغ نفسها فى التراب . علها تهدأ وتستعيد سـكينتها ، فانفلتت وصـعدت الى « الكنب الاسطنبولى » الذى جعلوا منه « مسرحا » للفرقة ، قبلتهم واحـدا واحـدا ، وزغردت ورقصت على ايقاع غنائهم الملىء بالشجن والأمل .

وصفق المهاجرون والفلاحون ، وهلل الأولاد ، وزغردت البنات والنسوان ، وقذف مخيمر « بشاله الحرير » لبلطية فوقع عنـد قدميها ، انحنت والتقطته ولفته حـول وسطها ، واسـتغرقت فى الرقص ، وتلوت واهتزت ، وأحست بالنشوة تغمرها .. نشوة تفوق ما تحسه فى أحضان كل الرجال ، لو أنهم اجتمعوا فى واحد وناموا معها ، فازداد اندماجها فى الرقص ، وأبدعت ، وأثارت شهوة كل الرجال والنسوان والبنات ، وفجرت بداخلهم رغبة عارمة فى التلاقى آخر الليل .



١٨ ـ الحريق :

« وقرب الفجر كانت البلد خرابة .. لونها أسود ..
والدخان مازال يحيط بها.. واحترقت الوشوش الحلوة و ..»



قدر للبلد أن تكون فرحتها بهذه الليلة، قصيرة الأجل، فبعد ليلتين ، وبالتحديد، فى ليلة ١٢ يونيو ١٩٧٠ روع البلد بحريق أرعب الناس وأذهلهم ، كانت النار فى شرق البلد ، وفى غربها ، فى شمالها وجنوبها ، فى كل الأزقة ، والشـــوارع ، وفوق كل الأسطح ، ولا يدرى أحد كيف حدث ما حدث ، ولا كيف انتشرت النار فى لحظة٠٠فى ثانية ، أو ساعة٠٠لكنها انتشرت وأحرقت القش والأسطح ، والشبابيك والأبواب ، والفراخ ، والأوز ، والثيــاب ، والمراتب والأغطيــة ، وكثيرا من الوجوه والأذرع والبطون ، وخنق الدخان عشرة من نساء ورجال البلد ، وتفحم خمسة أطفال ، واحترق جلد جاموستين ، ومات حمار ، وانطلق خاروف والنــار ترعى فى صوفه ٠٠ وحمل كل الناس الحلل ، والجرات والحصر المبتلة بالماء ، ورموا بأنفسهم فى النار ٠

وقرب الفجر كانت البلد ، خرابة ، لونها أسود ، متفحم ، والدخان مازال يكسوها فى بعض الأماكن ٠٠

وصرخ الشيخ تهـــامى ، وهو يحتضن خالد ، ونور ، بين ذراعيه :

– « يارب ارفع مقتك وغضبك عنا ٠٠ »

ثم انخرط فى بكاء طويل ، فقد احترقت زوجته أيضا ٠

وفى وش الصبح ، كان الضابط **وجدى** ، يرأس اجتماعا ضم **كثيرا من المهاجرين واهل البلد** ، الى جانب أعضاء اللجنة ، فكانت هناك **بلطية** التى احترق شعرها وهى تطفىء النار مع الناس ، وكان هناك **مخيمر** الذى دفن منذ لحظة زوجته « **أم عديلة** » واحترقت ذراعاه ، وكان هناك **أحمد عصفور** الذى شوهت النار وجهه وكان هناك **عبد الواحد** التمورجى ، الذى لف ساقه فى الأربطة ، وكان هناك **على الصياد** الذى كان يلبس جلبابا محترقا لا يخفى اصابة فخذيه ، وكانت هناك « **أم بسيمة** » ، التى بح صوتها من الصراخ واحترقت أصابع يديها ، وكانت هناك **هدى** التى احترقت قدماها ، وكان هناك **الشيخ تهامى** الذى لم يتمكن من انقاذ الست **أم خالد** وكاد لا يعرف جثتها المتفحمة وسط الأنقاض السوداء ، وكان هناك وجه الضابط **وجدى** ، الذى لفحته النار ، كان هناك كذلك الصمت والخوف والاحساس بيوم القيامة ، ولكن الشيخ تهامى ، تمكن من التحكم فى مشاعره ، فأخذ يتلو : « **بسم الله الرحمن الرحيم : قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** » .

وصمت الشيخ ، فثقل صمت المجتمعين ، وعاد الشيخ يقول وهو يبكى : « **ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** .. » **صدق الله العظيم** .

* *

أخيرا قال الضابط وجدى :

ـ « **هى كارثة .. أصابتنا كلنا فى الصميم ، لكن .. هل نفقد ثقتنا بالله وبأنفسنا ، وهذه الثقة هى كل ما تبقى لنا الآن ..** »

وصمت مرهقا ٠

ولم يعلق أحد بشيء ٠ كل ما حدث أن « **أم بسيمة** » أرادت أن تقول ان ولى الله « سيدى راضى » قد غضب من أفعال أهل البلد ، فهجر من مقامه ، وتركهم يحترقون ٠٠ لكنها خافت أن تعلن ذلك ، فازداد صمتها ٠

وأرادت « **بلطيـة** » أن تقول ان « **عطوة** » **هو السبب فى الحريق ، بأسلاك الكهرباء القديمة التى يمدها عارية من أى غطاء فوق الأسطح** ٠٠ لكنها عندما فتحت فمها لتتكلم ، لم تجد صوتها ، كانت قد بحت من الصراخ والاستغاثة لحظة الحريق فاحتبس صوتهـا ، وخرج فحيحا غير مفهوم ٠

وقال أحمد عصفور أخيرا :

– « كان حريق صهاريج الجاز فى الزيتية أهون وأخف من هذا الحريق ٠ كان جهنم بعينها ٠٠ »

وقال عبد الواحد ، واحتراق جلد ساقية يؤلمه :

– « كان يجب الاحتياط بعربة مطافىء ٠٠ كم قلت أننا فى حاجة لعربة اسعاف ٠٠ لكنكم لم تهتموا ٠٠ »

وقالت هدى ، وهى ترفع قدميها عن الارض ٠٠ كانت حافية ، وجلد قدميها يزداد التهابا :

– « لو كان وليد وعصام ويوسف هنا ٠٠ لو انهم ما ذهبوا ، لكان فى البلد عربة مطافىء ٠٠ فقد كانت مشاريعهم كثيرة ، وكانوا قادرين على عمل الكثير ٠٠ »

وقال فتوح أفندى ، وهو يغالب حسرته على احتراق الأثاث الجديد الذى كان قد أعده لزواج عصام ، يوم يعود :

– « **لقد أرسل الأولاد طلبات كثيرة لشراء عربة مطافيء ·· لكن أحدا لم يرد عليهم ·**

وقال الشيخ تهامي ، واللوعة تمزق قلبه :

– « **نسيبي وليد – رغم أن أفكاره لم تكن كلها مريحة قال لى قبل ليلة واحدة من ذهابه · انه سيبيع نصيبه فى الدار ، ليدفع نصف ثمن عربة مطافيء وعربة اسعاف ، لكننى للأسف لم أوافقه ·· »**

وعاد الصمت من جديد يحاصرهم ، فأحسوا بوطأة الفجيعة ، وازداد احساسهم بضآلة شأنهم وهوانهم ··

قال الضابط وجدى :

– **أثق – بعون الله – اننا قادرون على تخطى الكارثة ، وعلى النهوض من جديد ·· سنبنى البلد بالمسلح ، ولن نجعل القش فوق الأسطح ، وستكون أسلاك الكهرباء مغطاة وليست عارية . وسيكون بالبلد مستشفى وعربة مطافيء وعربة اسعاف · وسنجعل فى وسط البلد سوقا جديدة ، وأحلم ببناء مصنع للنسيج أو لغزل القطن ، ليعمل فيه من لا عمل له ·· وأعرف أننا جميعا سننفعل ذلك ·· وأحس بالثقة أننا ··**

❊ ❊

صمت الضابط **وجدى** ·· فقد فوجيء كما فوجيء الجالسون . بالوالدين **خالد** ، **ونور ، ومعهما عشرات من المهاجرين فى المعسكر ، يحملون طعاما ، وبطاطين ، وثيابا ، ومراتب · وحصيرتين ، وأشياء أخرى · قال له أحد المهاجرين** – عرفوا فيما بعد أن « **عبده البورى** » بائع الخيش والأفيون سمعوه يقول وحمل كبير من الخيش يثقل ظهره ويغطى رأسه ووجهه :

ـ « **لم نجد غير هذه الأشياء لدينا ..** »

وقال حمدى أفندى العرضحالجى ، وكان يحمل مع خالد ونور بعض الثياب والطعام :

ـ « **أشياء بسيطة تنفع وتفيد ولو مؤقتا .. لم نعرف كيف نوزعها على أهل البلد .. فجئنا بها اليكم ..** »

وصمت . صمت الجميع . جاشت كل النفوس بالاكبار لعبده البورى وحمدى أفندى .. وامتلأت القلوب باحساس جديد ، مفاجىء ، كبرعم يولد .. ينفتح ، وينفلت يشيل تراب الأرض ليطل على الدنيا أخضر ، ضعيفا ، لكنه ملىء حتى آخره بعصارة الحياة .

هب **الشيخ تهامى** من مجلسه ، واحتوى حمدى أفندى وعبده البورى فى أحضانه ، ألصق صدره بصدريهما وعانقهما ، وهزهما هزا مليئا **بحب لا يقاوم .**

ونهضت **هدى** ، داست على الارض ، لم تشعر بورم قدميها ، لم تهتم بخدش الحصى لفقاقيع الالتهاب بجلد قدميها ومشت الى خالد ونور وحملت عنهما بعض أحمالهما الثقيلة ، وقبلتهما ..

وقال فتوح أفندى ، وصوته يختنق بانفعاله :

ـ « **لقد أخجلتمونا يا أهل الأصول** »

فقال أحمد عصفور :

ـ « **اننا أهل يا رجل . خيركم سابق ..** »

واقترب « **مخيمر** » من « **عبده البورى** » .. وأخذه فى حضنه .. وظل يضمه بامتنان ، واختلطت دموعهما فى صمت ، ثم قال له :

ـ « **عديلة لا تغلو عليك يا سيد الرجال** ‥ »

وقالت هدى :

ـ « **كم أكلنا وشربنا من خيراتكم ‥ وكم أخذنا منكم** ‥ »

فقال الشيخ تهامى :

ـ « **لا فضل لعربى على اعجمى الا بالتقوى** ‥ »

وصمت يقاوم انفعاله ، ثم أضاف :

ـ « **ومع ذلك ، فها أنتم تجودون بالقليل الذى عندكم ، وأنه لكثير بفضل الله** ‥ »

كان الضابط **وجدى** يرقب المشهد ، **وكأنه فى حلم** ‥ كان يظن أن الحريق قد أجهز على البقية الباقية من الخير فى النفوس ، لكن ها هو « **عبده البورى** » الذى صفعه بنفسه منذ أسبوع عندما اقتاده العسكرى متلبسا بالاتجار فى الأفيون ، وعنفه وهدده بالسجن ان عاد اليه، ها هو بجسده الضئيل، وساقه المصابة من الحريق، يقف وسطهم بكل عظمة وشموخ وبساطة يحمل ما لديه من خيش وها هو حمدى أفندى ، الذى طالما أزعجه بالعرائض ، يحمل مع الأولاد والمهاجرين كل ما فى « المعسكر » من طعام وثياب ‥ لأهل البــــلد ‥

‥ انه لشىء فوق الاحتمال ، هكذا أحس الضابط **وجدى** ، وهو ينهض رغم التهابات ساقيه ، ويشد على يدى **عبده البورى وحمدى أفندى فى صمت** ، فقد خنق الانفعال صوته ·

لكن عبده البورى فاجأه بقوله :

ـ « **كنت أريد أن أقول لك يوم امسكنى العسكرى** ‥ اننى مضطر للتجارة فى الأفيون · الجوع لا يرحم ‥ والخيش تجارة غير

رائحة ·· لكنني أعدك ·· بشرفي ·· يا حضرة الضابط ، أن أتوب الى الله ·· »

« **لم يكن الضابط وجدي يريد منه ذلك ، لم يكن يرغب في أن يجبره على هذه التوبة ، لا اليوم ولا قبل اليوم ولا بعد اليوم ، لأنه كان يعرف أنه مضطر ، لكن عبده البوري فاجأه ووعد بشرفه ، والضابط وجدي يحس ويثق في أن شرف عبده البوري ، أغلى من جوهرة ·· وأنه لذلك يزداد حبا له ، فربت على كتفه بامتنان شديد ، لكن صراخ الجرحى كان يثير الفزع ·**

١٩ ـ العقاب :

« أتبيع أولادنا الأطهار يا يهـوذا ٠٠ ؟! »



أوقف الأستاذ متولى عبد السلام الدراسة بالمدرسة الاعدادية ، وقام الطلبة والطالبات والمدرسون باخلاء الفصـــول من التخت والمقاعد ، وفرشوا بها بعض ((السراير)) التى تبرع بها المهاجرون والتى جاءت كاغاثة عاجلة من معسكر المهاجرين بالكفر القريب من البلد ، وفرشت البنات الملاءات والبطاطين و «الحصر » والخيش ، وعاون النســاء والرجال والأطفال المصابين على الرقود برفق ، وسافر الضابط وجدى بنفسه الى المحافظة ، وأحضر أدوات العلاج ، وجاء معه بعض الأطباء والممرضـــين الذين عاونهم على الصـــياد وعبد الواحـــد وأبله هدى وأحمـــد عصفور ـ رغم الحروق التى تؤلمهم .

وجــاء (**عطـوة**) متعثرا فى احســـاسه بالخجل ، وعـرض مساعداته المالية ، فرفض **الشيخ تهامى** ونهره **فتوح أفندى** ، فتركهما وانشغل بمد أسلاك الكهرباء فى غرف المدرسة ، وحمل ما فى محله من راديوهات ، ووزعها على الأسر الجريحة ، ثم قاوم نفسه بمشقة وأحضر لكل حجرة جهاز تليفزيون ، وعلم الطلبة والطالبات كيف يديرون الأجهزة برفق ودون أن يسببوا له المزيد من الخسائر ..

فى حجرة ناظر المدرسة .. فاجأه الضابط وجدى بسؤال :

ـ « الأسلاك العارية ٠٠ التى أحرقت البلد على من تقع عاقبتها الوخيمة يا عطوة ٠٠ »

فارتعش عطوة وبكى ، وقال :

ـ « انما الأعمال بالنيات ٠ أليس كذلك يا شيخ تهامى ٠ هل كنت أقصد احراق البلد ٠٠ كنت أنير لكم الطريق والبيوت »٠

وقال الشيخ تهامى :

ـ « كنت تغالط وتسرق نقود الناس ، وتغشهم وتستعمل أسلاكا رخيصة لايكسوها البلاستيك أو القماش٠٠فأحرقت البلد٠٠ بعد أن نهبت نقوده ٠٠ » فأحس عطوة بالخطر يدهمه ، فصاح محتجا :

ـ « لم أضرب أحدا على يده ليدخل النور لداره ٠٠ لقد جاء من أراد ورجانى أن أدخل له الكهرباء ففعلت ٠٠ فما هو ذنبى أنا ٠٠

قال الضابط :

ـ « النية الحسنة لا تكفى ٠٠ لتبرير الكوارث يا عطوة ٠٠ فهناك جريمة ولابد من الحساب ٠٠ »

قال عطوة :

ـ « لا شيء ثابت لا شيء مؤكد ٠ فمن قال ان أسلاكى هى التى أحرقت البلد ٠٠ »

قال الشيخ تهامى :

ـ « هذا واضح كالشمس يا عطوة ، فلا تمارى ولا تكذب ٠٠ وكفاك ما فعلت بنا من مصائب ٠٠ »

قال عطوة بمكر :

- « ولم لا تكون فلاحة تخبز ، أو تطبخ ٠٠ أو مدخن جوزة٠٠ أو عقب سيجارة ٠٠ هو السبب فى الحريق ٠٠ »

فقال فتوح أفندى :

- « هذا غير مؤكد ٠٠ »

قال عطوة :

- « وجريمتى - ان كانت هناك جريمة - غير ثابتة ٠٠ »

فقالت هدى :

- « لا شـك أنك حاولت خـدمة البلد . أدخلت اليهـا الكهرباء ٠٠ هذا مؤكد ، لكنك فعلت ذلك دون عقـل ، وأهملت واستعملت خامات رخيصة لا تحتمل التيار ٠٠ ودراسة أعمالك بدقة من بدايتها تكشف الكثير من الثغرات التى تؤدى بسـهولة الى الأسباب الحقيقية للكارثة التى وقعت ٠٠ »

فهب فيها عطوة ، متبجحا :

- « ولماذا وقفتم تتفرجون على . لماذا لم تتفضلوا وتشاركونى العمل فى انارة البلد ٠٠ هل قلت لكم لا دخل لكم بعملى ٠٠ هل حدث هذا منى ولو مرة واحدة ٠٠ هه ؟ »

وصمتوا لحظة ، وقال فتوح أفندى فى سره :

- « لو كان عصام ابنى هنا ، لعرف كيف يلقم عطوة حجرا، ويخرسه ٠٠ »

وقال الشيخ تهامى :

« لو كان « وليد » هنا لحرص أن يشرف بنفسه على مد أسلاك الكهرباء من شارع لشارع ومن بيت لبيت ، فقـد درس المشروع

وفكر في حل لخفض تكاليف الانارة ·· وكان يطلب عدادات لضبط الحساب ·· »

وقالت هدى :

ـ « لو كان يوسف موجودا الآن ·· لساعدنا فى الكشف عن أسباب الكارثة ·· كان صفاء ذهنه يذهلنى ·· كان يؤمن بأن القفز الى النتائج دون دراسة الأسباب دراسة دقيقة بالورق والقلم ·· خطأ وجنون ·· »

وقال الضابط وجدى :

ـ « كانت مشاكل البلد تطاردنا ·· لم تترك لنا فرصة لمراجعتك يا عطوة ·· »

فقال عطوة :

ـ « ليس ذلك خطئى أنا ·· أم تراكم ترون أننى المسئول حتى عن هياج البنات والأولاد فى المدرسة ·· هه ؟! »

فقال الشيخ تهامى :

ـ « والله لو أنى بعافيتى لجلدتك فى جرن البلد ·· ولعلمتك كيف تخشى الله فى معاملاتك ·· فأنت سبب كل المصائب ··»

فقال عطوة دون وجل :

ـ « أخشى أن ينسى مولانا الشيخ ، ويقول اننى كنت أيضا السبب فيما فعلته بلطية بالست أم خالد ·· »

فنهض الشيخ تهامى غاضبا ، وقال :

ـ « لا تدنس الأطهار بلسانك الزفر يا كافر ·· ألا لعنة الله عليك وعلى اليوم الأغبر الذى رجعت فيه الى البلد ·· »

بذل الضابط **وجدى** جهدا كبيرا قبل أن يتمكن من تهـــدئة الشيخ تهامى ، واعادته الى مقعده ، لكنه قبل أن يتمكن من ذلك ، كان مخيمر قد سمع صياح خاله .

كان مخيمر لحظتها فى الطابق الثانى من المدرسة ، كان يعاون أحمد عصفور فى حمل الجرحى ، ويناول الأربطة والمراهم لعلاجهم ، فهرول هابطا السلم وقد أحس ـ بحكم عادته منذ كان صغيرا ـ أن خاله قد أهين ، أن كرامته قد جرحت فما صرخ خاله الا من الشديد القوى .

وصل الى باب الغرفة حيث تجرى المحاكمة ، ولم يكن فى حاجة لسؤال أحدهم ليعرف أن عطوة قد أهان خاله ، واستيقظ فى قلبه حقده على عطوة ، وغله الاسود منه ..

.. طلب منه مرة أن يدخل النور الى داره ، فقال له :

ـ « اذا بعت كل ما لديك من حمير ، لن تقدر على تكاليف انارة الدار .. »

وفى مرة أخرى كرر طلبه فسخر منه عطوة قائلا :

ـ « الظلام لأمثالك نعمـــة .. حتى لا تراك بســـــيمة على حقيقتك .. »

ولم يكن يعرف سر كراهية عطوة له ، لكنه عرف فيما بعـــد أن عطوة يتهمه فى أمه ، فقد سمع عطوة مرة يقسم بشرفه أن أم مخيمر هى التى سرقت كنوز أمه « أمينة العاجزة » يوم وفاتها ، يومها غضب عطوة ورفع عليه خيزرانته ، لكن الجالسين تمكنوا منه وضحك عطوة وقال :

ـ ولو أنها فعلت يا مخيمر .. لا يهم فانا اليـوم لدى مال

قارون .. ولن اطالبك برد كنوز امى التى اشترت بهـا امك ما عندك من أرض وحمـير ..

وقهقـه ..

يومها ظن مخيمر أن عطوة قد انسطل بفعل الحشيش ، فلم يدق على كلامه ، وانصرف لحظتها لموعد مع بلطيـــة ، وها هو الآن يتذكر كل شيء ، حتى الراديو الترانزستور الذى أعطاه عطـــوة لبلطية ، أحس أنه أعطاه لا لبلطية بذاتها وانما هو كأنما أعطـــاه لزوجته أم عديلة أو زوجته بسيمة ذاتها .

هو لا يعرف سبب هذا الشعور ، لا يقدر على تفسير المسألة لأحد ، لكنه أحس ذلك .. وتذكر فجأة أن عطوة هو الذى أشاع فى البلد ما حدث له يوم ضربه خاله بسبب بلطية .. وأشـــعل غله ، ما يراه على وجه خاله من انكسار واحساس بالعار .

.. وفى ثانية .. رفع خيزرانته ، ولسع عطـوة فوق عنقه تماما فهب فزعا صارخا ، فأجج ذلك من ثورة مخيمر فأخذ يضربه ويضربه ويضربه حتى أسال دماءه ، ثم رمى بالخيزرانة وارتمى فوق عطوة وأراد أن يخنقه .

عندما تحشرج صوت عطوة ، عنـــدئذ فقط ، هب الضابط وجدى ـ الذى كان يرى أن ضرب عطوة هو عقاب عادل . وحال بين مخيمر وقتل عطوة .. لا لشىء الا لأنه لم يشأ أن يسوق مخيمر أمامه الى السجن ليواجه تهمة محتمة وهى « **القتل مع سبق الاصرار والترصد** » .

وقال فتوح أفندى فجأة :

ـ « لك الله يا ولدى عصـــام . كنت تقول لى .. خيزرانة

**مخيمر ، وعقلنا .. كفيلان بحل مشاكل البلد حلا حاسما..هيه..
ترى ماذا يفعل بكم الزمن يا أولاد ؟ »**

واهتاجت المشاعر ، فقال « **عطوة** » ، وكان يريد فقط ـ اثبات غيرته على البلد للضابط وجدى ، قال صارخا بأعلى صوته :

ـ « أولادكم كانوا جواسيس .. أنا أعرف انهم جواسيس .. ولذلك سلمتهم للمباحث .. »

بهت الجميع .. أخذتهم المفاجأة حتى أنهم ظنوا أنهم ما سمعوا شيئا ، لكن هدى صرخت في رعب حقيقي :

ـ « أنت يا كلب .. »

انشبت أظافرها في وجه عطوة ، وعضته ورفسـته وازداد صراخها ، فاجتمع حولها كثير من الطالبات والطلبة والمدرسين وكل من قدر على الحركة من ضحايا الحريق .. وانفلت خالد ونور من بين الاقدام وصارا بجوار المشهد المثير مباشرة ، بالقرب من هدى ، التي أدهشهما كثيرا هياجها ..

وقال فتوح أفندى :

ـ « أنت اذن يابن الكلب الذى فعلتها .. »

وقال الشيخ تهامى :

ـ « كنت أحس أن في الأمر وشاية خسيسة ، لكنني ما ظننت يومها أنك قد كفرت الى هذا الحد .. »

ثم صاح :

ـ « أتبيع أولادنا الأطهار يا يهوذا ؟ .. وبكم بعتهم .. بكم أضعت أولادنا يا أبا جهل .. يا سليل قتلة الحسين » .

وقبض مخيمر من جديد على خيزرانته وأراد أن يضرب عطوة هذه المرة حتى الموت .. فقد كان يعز الأولاد . هو صحيح لم يكن يفهم ما يقولونه ، لكنه كان يراهم بعينه يصدون عن البلد الكثير من المصائب .. وقد علمه وليد بنفسه كيف يكتب اسمه ، وجعله يرمي ختمه .. ويومها أحس مخيمر بالاحساس نفسه الذى أحسه يوم ذهب الى الدكتور فى البندر ليزيل له « العصفورتين الخضراوين اللتين دقتهما له أمه على صدغيه فى السوق ذات يوم وهو صغير . وكان يحب أن يجلس مع « وليد » نسيب خاله ، وكان يجعله يقرأ له سيرة أبو زيد والزناتى خليفة ، وكان لا يفهم تعليقات وليد على السيرة وشرحه لها ، لكنه كان يحبه كابنه ، كأخيه الكبير .. كأبيه وأمه .. كالشيخ تهامى بالضبط .. لذلك كان غضبه يتزايد ، وعيناه يخنقهما الدم ، ولو لم يتركوه يضرب عطوة حتى يموت لطق ومات .. فبكى عندما منعه الضابط وجدى ، واستغاث بخاله :

ـ « دعونى أشرب من دمه ابن الزانية .. دعونى أربيه .. »

واستطاع ـ لا يدرى أحد كيف ـ أن ينفلت من أيديهم جميعا ، ولسع عطوة فوق رأسه ، فوق وجهه ، ثم رفسه بقدمه بين فخذيه تماما فأن عطوة ، وانكتم نفسه لحظة ظنوا معها أنه مات لكنه عاد يتلوى على الأرض ويعوى كالكلب ، ثم قال :

ـ « أنا أكذب عليكم . وحياة مقام النبى . والله .. والله .. والله .. أنا أكذب .. هم ضايقونى صحيح .. شكوتهم كثيرا للمسئولين لكنهم طردونى كما طردتنى أنت يا حضرة الضابط .. لم أبعهم .. لم أش بهم .. »

وصمت الجميع أمام المفاجأة الجديدة غير المتوقعة . وعاد عطوة يعترف فى ضعف شديد :

ـ « يا ناس ٠٠ اننى فقط ٠٠ أريد أن أجعلكم تحسون ولو مرة أننى أفعل شيئا في البلد ٠٠ مازلت أحس ببشاعة مارأيته يوم ماتت أمى ٠٠ دخلت النســوان الدار وقلبنها حجرا حجرا وشــبرا شبرا ونهبوا أموال أمى ، تحويشة عمرها الأعمى القصير وتركونى أبكى وحدى بجوار جثتها . أردت يوما أن تحسوا أننى صرت رجلا له شأن ٠٠ لكنكم ماشعرتم بى، اغظتكم لتحسوا بى فازداد كرهكم لى ٠٠ ضربتمونى ، فاردت أن أثبت لكم أننى ـ رغم كل شىء ـ لى شرف ٠٠ لكن لسانى كاد يودى بحياتى ٠٠ يا كفرة »

سكت الجميع ، أحسوا بقسوة امتهان الرجل لنفسه ، وبشاعة ضياعه ، لكن أحدا لم يحس ذلك بقلبه ، لم يعطف عليه أحد ، لم يهتم به أحد ، لم يلتفتوا اليه ، تركوه وخرجوا وصوت الضابط وجدى فى آذانهم :

ـ « مهما يكن ٠٠ فلا شىء يبرر نذالتك ياعطوة ٠٠ وثق اننى سأعمل على تشكيل لجنة فنية لتبحث علاقة أسلاكك الصدئة بحريق البلد ٠٠ »

❋ ❋

لكن أهل البلد ، فى الليــل ، تذكروا أنهم أخطأوا فى حق الأولاد ، وأنه ما كان يصح أن يتركوهم وحدهم للمصير المجهول، وازداد الحنين لرؤيتهم ، وقال ناظر المدرسة الاعدادية :

ـ « قد أكون غريبا عن البلد ، فأنا لست من أهلها ، لكننى يجب أن أعترف بأن وليد وعصــام ويوسف ، كانوا مثــال الطهر والاستقامة، واننى كنت أحبهم فعلا ، ولام نفسه لخوفه يوم اعتقلوا ، وانشغل هو بالبحث عن طريق للنجاة اذا سئل عن سبب استضافته لهم فى ندوة بالمدرسة ٠٠

ووجد نفسه ، يصحب مدرسي المدرسة ، ويذهبون لزيارة فتوح أفندى ، والشيخ تهامى ، وهدى ..

وجلسوا طويلا مع أم يوسف الوحيـدة التى لا يذكر أحد أنها قالت شيئا منذ اعتقل ابنها حتى ظنوا فى المعسكر أنها أصـيبت بالخرس . وقال لها الناظر :

ـ « سيعود يوسف باذن الله .. ثقى فى رحمة الله .. »

فقالت ، بصوت أوهنته الهموم :

ـ « اننى ما فقدت الأمل أبدا .. فقد علمنى ابنى يوسف أن أثق فيه . ومهما حدث ، فمازلت أثق فيه .. »

وقال أحد المدرسين :

ـ « نحن أيضا أبناؤك .. فلا تحملى هما .. »

فقالت بيقين :

ـ « أنتم فى قلبى مثل يوسف .. لكنه « تحويشة » عمرى .. كان زوجى وأبى وأمى وأخى وأنيس أيامى السوداء والبيضاء .. »

ساد الصمت . وقد ازداد الاحساس بطول غياب الأولاد .. ازداد عن كل مرة سبقت ، وصار الانتظار غير محتمل على الاطلاق .

٢٠ ـ الفجر يطل على شمال السماء :

لا مفر لنا من
من البقاء على
قيد الحياة
وقسوتها
لا مفر لنا من البقاء
إن الذين ينهشون لحمنا
وأحلامنا سيذهبون وإن
طال الأمد .. أما نحن .. مهاجرون
وفلاحون .. سنبقى .. اتفهمون ..
وعلينا أن نفعل شيئا نقوله لأطفالنا ..
إننا كنا هنا ذات يوم ولم نكن ضعفاء
إلى هذا الحد



بعد شهر ٠٠ أو شهرين أو ثلاثة ، لا أحد يذكر بدقة ، تمكن أهل البلد من ازالة بقايا البيوت المحترقة ، وبدأوا يستعملون لتحويل ما جمعوه من ردم وتراب وقش وطوب محترق الى قوالب تصلح للبناء ٠

وقال أحمد عصفور ، انهم بعد أن يرصوا القوالب فى « قمينة » كبيرة ، مثلما اعتادوا ، سيدبر لهم الفحم اللازم لحرقه ليصبح طوبا أحمر أكثر صلابة من الطوب الأخضر الطينى ، ليبنوا بيوتا أكثر احتمالا ٠

وشكروا له وعده ، خاصة وأن الدودة كانت قد قضت على كل أمل فى الحصول على حصاد معقول من عيدان الحطب ، على عكس ما كان يحدث فى كل مرة ، اذ كانت الدودة تخرم « اللوز » وتقلل من محصول القطن لكن الدودة هذه المرة جاءت مبكرة فنخرت البذور ، واكلت أعواد القطن وهى لاتزال خضراء صغيرة ، فقل الحطب وندر القطن ، وصار الاقتراح باستعمال الفحم حلا معقولا ، أما ثمن الفحم وتكاليف البناء ، فقد تركوا أمرها لأحمد عصفور الذى وعد بأخذ قرار من لجنة المهاجرين على تجنيب القليل من تعويضات الاغاثة والاعاشة لتدبير الأمر ٠

وقال الضابط وجدى ، انه يبذل جهده مع المسئولين ليكون

تعويض الحريق مجزيا ، لكن المشكلة أن التحقيق مازال مستمرا مع عطوة ، لاثبات ان الحريق كان بسبب اهماله فى اسلاك الكهرباء ·· وهو ما يعطل كل الأمور ··

* *

صار لون الخيام قاتما ، فقد كثر التراب فوقها ، وحال لونها ، واعتاد الفلاحون على الحياة داخل الخيام ، واعتادوا أن يربطوا مواشيهم فى الجرن، ويتركوها فى حراسة مخيمر الذى تطوع بالقيام بهذه المهمة عن طيب خاطر ، لأنه يفهم فى أصول رعاية المواشى ويحفظ لغة البهائم ، بحكم عمله كتاجر حمير طوال عمره ··

وقال بعض الذين رغبوا فى تخفيف همومهم بأية وسيلة ، ان « **مخيمر** » **يبيت فى الجرن لا ليحرس البهـائم ، وانما لكى ينعم بخلوة مع بلطية ··**

وكان « **عبده البورى** » يدافع عن نسيبه مخيمر ، الذى وعده بالزواج من عديلة بعد بناء البلد ··

وكان مخيمر ، اذا صارحه أحدهم مداعبا بما يقال عنه ، كان لا يغضب لأنه يعرف أنهم لا يقصدون الاساءة اليه ، لكن اذا تجاوز الأمر حد الدعابة ، كان يقسم لهم بالطلاق ، أنه ما عاد ينام معها ، وأنه كفاه « بسيمة » التى بقيت له بعد أن رحلت أم البنات عن الدنيا، **وكان يقول فى نفسه انه قد قصر كثيرا فى حق أم عديلة ··** رحمها الله · وكم احتملته بطيبة قلبها ، لكن البركة كل البركة فى بسيمة التى ترعى بناته وتضعهن فى نن عينيها ، لا لأنها لا تنجب فقط ، بل — وهو يعرف ذلك يقينا دون أن تقول له ، أو دون أن تفسر هى الأمر — يعرف أنها تفيض حنانا وحبا لبناته ، وله ، وأنها صارت له أما وأختا ، وأخا ، ورفيق طريق أيضا ··

وذات يوم .. أشيع فى البلد ، أن « الأولاد » قد يعـودون قريبا .. لكن متى ؟! .. الله وحده يعلم .. لكن الناس تعلقوا بالخبر .. ونشروه .. ولم يسألوا عن مصدره .. وفى ليـــلة عاشوراء ، ذبحوا جاموسة وبقرة ليأكلوا مع المهاجرين أمام الخيام ، بجوار مخازن العمدة (المعسكر) وباركوا للشيخ تهامى وفتـوح أفندى وأبلة هدى ، لقرب عودة « وليد » و « عصام » و « يوسف » .. واستبشر الجميع .. لكن الضابط « وجدى » حمل اليهم نبـأ جعلهم يسقطون فى قبضة هم كبير .. فطال صمتهم وبرد الطعام وباخ السهر ..

وفى آخر الليل .. انكمش الأهالى داخل الخيـــام .. وكل منهم يحاول أن يتذكر نص كلمات الضابط وجدى للشيخ تهامى وفتوح أفندى وأبله هدى .. ويحاول أن يستبشر بها ..

❋ ملحوظة :

« فى ذلك اليوم ، قبل أن يذهب الضابط وجدى وزوجتـه وابنته الى « المعسكر » ليشارك أهل البلد احتفالهم بليلة عاشوراء ، فوجىء بعامل الاشارة فى نقطة البوليس يدخل عليه وفى يده اشارة عاجلة تقول كلماتها : « يتم التنبيه فورا على كل من أهالى أو أولياء أمور المتهمين « وليد ــ عصام ــ يوسف » بضرورة التوجه يوم .. وساعة .. الى ادارة السجون ، وذلك لأمر عاجل جـدا » ، وقد انقبض قلب وجدى عندما طالع فى الاشارة العاجلة كلمة « ويراعى السرية التامة » ..

❋ ❋

حاولت هدى أن تنام .. لكنها تركت فراشها ، وأخذت تعد نفسها للسفر فى الفجر **مع الشيخ تهامى وفتوح أفندى .. كانت**

خائفة وتريد أن تغرق نفســـها فى أفراح تتمناها وتعيش من أجلها من زمن طويل ·· ربما منذ مولدها ·· لكنها فشلت حتى فى أن تجلس صامتة ·

❋ ❋

وعندما جاء الفجر كان الشيخ تهامى ما زال يقظا ·· يخفى هواجسه فى تلاوة القرآن بذهن شارد ··

و ·· كان فتوح أفندى متورم العينين عندما التقى بهمـــا استعدادا للسفر الى ادارة السجون ··

❋ ❋

فى البندر ·· خطرت لثلاثتهم الفكرة ·· ربمـــا فى وقت واحد ·· لم لا يشترون هدايا للأولاد ·· ؟!

اشترى الشيخ تهامى مصحفا ، غلافه مطعم بالذهب ، وكتب على صفحته الأولى اهداء لنسيبه « وليد » وأضاف : « أسأل الله الهداية لى ولك ولكل البشر ، واعلم يا ولدى أنى أحترم كل آرائك رغم اختلافى مع أغلبها ، وأنى لأحس احساسا صادقا وقويا بطهارتك يا ولدى ·· » وتحت توقيعه كتب التاريخ : ١٢ فبراير ١٩٧٠ ·

·· واشترت « **هدى** » دبلتين لها وليوســـــف ·· بدلا من الدبلتين اللتين باعهما فى أعقاب الهجرة ·· وقالت فى نفسها : « كأننى سأزف الآن ليوسف ·· » ونقش الصائغ تاريخ اليوم على الدبلتين : « ١١ فبراير ١٩٧٠ » ·

ولم يشتر فتوح أفندى شيئا ، وانما اصطحبهما الى « الشهر العقارى » وسجل الأوراق التى سهر ليلة فى كتابتها ويتنازل فيها عن كل ما يملك لابنه عصام ·· وقال متضاحكا : « ليتسلم قياد البيت ويكفينى أن أكون صديقا لابنى ·· »

وواصلوا السفر الى حيث الأولاد ..

* *

وفى البلد .. طال انتظار الجميع لعـــودتهم بالأولاد .. وعشش القلق فى كل الخيام ، وصعب على « **مخيمر** » و « **وحمـدى أفندى** » و « **عبده البورى** » و « **أحمد عصفور** » التكهن بالمصير .. وأجلت « **بلطية** » الاحتفال بعيد ميلاد ابنها « **نور** » ، بعـد أن اشترت لهذه المناسبة « صندوق كاكولا وزجاجـة شربات » .. وخمن « **الضابط وجدى** » الحقيقة المخيفة .. لكنـه لم يجرؤ على اعلانها ..

* *

بعد يومين .. بعد اسبوع ، لا احد يذكر الآن ، ما حدث بالتفصيل ، عاد الشيخ تهامى وفتوح افندى وابله هدى منهارين ومع كل منهم « صرة » قاتمـة بها ثياب ومخلفات : وليد وعصام ويوسف ، وفى راس كل منهم نص كلمات قيلت لهم هناك بلا مبالاة « لقد أخطا ابناؤكم بمحاولتهم الهرب .. واننا لناسف لأن رصاص الحرس قد اصابهم بطريق الخطا و .. »

« وخلف الثلاثة .. سار اهل البلد فى جنازة صامتة ، انحبست فيها الدموع والصرخات من هول الفزع ، ونسى « الضابط وجدى » الاشارة العاجلة التى وصلته فى صباح ذلك اليوم تامره بان : « لا جنازة ولا عزاء .. ويراعى الصمت والسرية »

* *

مر شهر .. شهور .. عام .. لا أحد أيضا يذكر ، وفى يوم من الأيام الملتهبة بالشمس الساخنة ، أراد الضابط وجدى أن يكسر حواجز الصمت ، وينسى الناس ما هم فيه من قهر .. فأعلن أنه قد آن للجميع أن يبدأوا فى بناء البلد الذى دمره الحريق وما حدث بعده .. وفى سكون ، أقيم احتفال صغير بمناسبة وضع أول طوبة فى أول جدار فى أول بيت جديد فى شرق البـلد ، وبصعوبة قال الضابط وجدى :

ـ « أصارحكم ‥ انني أحس بالعار ‥ لقد سألت عن التهمة التي وجهت لأولادنا ‥ فقيل لي يومها ‥ « لا شيء ‥ لا شيء ‥ ان الأمور قد تغيرت على أي حال ‥ فلا داعي لاثارة الشجون ‥ » واختنق صوته فصمت ‥

أرادت « هدى » أن تصرخ ‥ أن تلعن الدنيا ومن فيها ‥ لكن الحزن سحق صوتها ‥ فصمتت ‥

وقالت بلطية ـ بعد سلسلة من الشتائم الجارحة : لأول مرة أعرف أن الناس كانت تموت دون سبب .

وقال أحمد عصفور :

ـ « لقد كان ما حدث فظيعا ‥ وكنا مثل « الأولاد » ‥ انها شهوة التسلط ‥ والبحث عن مبررات حسب أصول اللعبة القذرة ‥ اسألوني ‥ فأنا أعرف شرور هذه اللعبة ‥ وكم عانيت منها ‥ »

وقال عبده البوري :

ـ « أفهم أننا كنا مغفلين وتركناهم يضحكون علينا كل هذا الوقت ‥ ؟ »

فقال عبد الواحد :

ـ « أنا شخصيا انضحك علي كثيرا . ضحك علي خالي ولهف كل تركة أبي ‥ لكنني هذه المرة أحس بأنهم لم يضحكوا علي فقط ‥ بل وجعلوني أخاف لسنين طويلة ‥ وجعلوا صديقي أحمد عصفور يزهد في الدنيا ويخاف وييأس من كل شيء وجعلني ذلك أخاف أكثر منه وأيأس أكثر منه ‥

وقال الضابط وجدي :

– « ليكن · انها كارثة وقد تعلمنا كيف نواجه الكوارث بقلب كالحديد ، لننس أن الأولاد قد اعتقلوا ظلما ودون تهمة محددة ·· ولنبدأ من ··· »

فصاحت أم يوسف بألم واضح :

– « وعذاب كل هذه الشهور ·· وضياع ابنى – أيذهب كل هذا هدرا ، ودون حساب ؟! » ·

·· كانت هذه أول مرة يسمع فيها المهاجرون والفلاحون صوت الست الطيبة أم يوسف ·· فاندهشوا ·· كان رقيقا ·· برغم غضبته ·· كان ودودا برغم شحنة الألم التى انتقلت عبر نبراتها الى قلوبهم ·· كانت قوية برغم احساسهم بضعفها ، كانت حاقدة برغم يقينهم بطيبة قلبها ، كانت فارعة الطول برغم ظنهم بضآلة جسدها ، كانت حلوة ·· بل شديدة الجمال ، بعكس ما خمنوا ·· فازدادوا حبا لها ·· وترحموا على ابنها وزميليه ·· واحتسبوهم فى الشهداء ··

وأرادت هدى أن تطيب خاطرها ·· أرادت أن تقول لها ما كتبه ابنها يوسف عنها فى مذكراته عن حرب ٥٦ – التى تحتفظ بها الآن مع دبلة الفرح :

« وبكيت لأن أمى بكت ·· لاستشهاد خالى ·· وازداد يقينى بأنها وادى حياتى الخصيب ·· حيث تزخر أعماقها بعطاء فى خصوبة الزرع والضرع والحب والعمل والأمل ، وتحمل معاناة الحرب من أجل كل أبنائها ·· »

لكن **هدى** أحست أن كلمات « زوجها » يوسف كانت صلاة خاصة لأمه ، فلم تشأ أن تذيعها ·· لكنها لدهشتها رأت فى عيون

الجميع من حولها ، ومن صمتهم المفعم بالحب ، بصلاة مثل صـــلاة يوسف وغزله فى أمه ، فوقفت ووجدت نفسها تقول :

ـ « مهما يكن ‥ فلقد علمنا أحبابنا ‥ أننا جميعـــا قد استفدنا من تجربتهم وحاولنا أن نفعل ما كانوا سيفعلونه لو أنهم كانوا بيننا ، وأعتقد أنهم فرحون الآن لأننا دائما نذكرهم ‥ وكنا نترقب عودتهم وكنا نظن أنها عودة قريبة ومضـــمونة وكانت دراستهم بالجامعة على وشك الانتهاء ، وبعد أعوام كنا سنراهم فى الاجازات طبعا ، وسنثقل كاهلهم بمشاكلنا وهمومنا ‥ كمـــا تعودنا ، لكننا نثق على الدوام فى حبهم لنا ، لعل هذا كله ما يملأ قلوبنا بالعزاء و ‥ الأمل ‥ »

ثم صمتت **هدى** ، عندما اختنق صوتها ببكاء مفاجىء ‥ فقد أحست بأنها شديدة الضعف أمام حبها ليوسف ، وحبه لها ‥

ولكنها ما لبثت أن أضافت بصوت مقهور :

ـ فقط ‥ لو أعرف أين أخفوا أحباء القلب ونور العين ‥ أو متى اغتالوهم ‥ أو لماذا ؟ ‥ وانخرست ٠

قال فتوح أفندى :

ـ « المهم يا ابنتى أن الأحباء قد افتدونا نحن ‥ وذهبـــوا ضحايا بذاءة هذه الحياة وقسوتها ‥ »

‥ وفاجأهم صوت الشيخ تهامى الذى تلمس طريقـــه الى آذانهم فى وهن :

ـ « لا مفر لنا من البقاء على قيد الحياة يا أولادى ‥ » ـ لاأعرف من قال هذه الكلمات من قبل ‥ لكننى أعرف أن الذين ينهشون لحمنا وأحلامنا ســـيذهبون وان طال بهم الأمد ‥ أما نحن فمن

الصعب محونا من الوجود . اننا .. مهجرون وفلاحون سنبقى .. اتفهمون .. ؟! »

وبكى الشيخ تهامى . أول مرة يراه النـاس يبكى وهـو يضيف :

- « أما الأحباء : يوسف وعصام ووليد .. فلقـد كانت أحلامهم رائعة .. لقد كانوا يحلمون لنـا .. لكنهم ذهبوا مع الشهداء والصديقين ، وتركوا لنا مشقة أن نحمل أحلامنـا ، وأن نستشعر الأسى من أجلهم ومن أجلنا .. وقد نضـعف .. ونتعب .. لكن علينا مع ذلك أن نفعل شيئا له قيمة ليعرف أطفالنا أننـا كنا هنا ذات يوم عصيب ، وأننا لم نكن ضعفاء الى هذا الحد .. »

وخنقته دموعه .. فصمت .. وصمت الجميع من حوله ، وقد تحجرت دموعهم .

وازدادت شمس مايو دفئا وسطوعا ..

و .. عندما وضع الضابط وجدى ، حجر الأساس للبـلد الجديدة ، هلل أهل البلد .. وجدوا أنفسهم يهللون بعنف ، وبعد وقت غير قصير ، قال الشيخ تهامى ، الذى ازداد نحولا وضعفا :

- « فى البدء خلق الله السموات والأرض ، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه القمر ظلمة ، وروح الله يرف على وجه الماء ، وقال الله ليكن نورا فصار نورا، ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة ، ودعا الله النور نهارا والظلمة دعاها ليلا ، وكان مساء وكان صباح »

وصمت لحظة، اراد ان يقول انه بدأ ـ على غير عادته ـ بتلاوة آية من « **الاصحاح الأول** » من الكتاب المقدس حتى لا يتهمه أحـد

بتعصب . **أو يحاول أحد البحث عن وسيلة مفتعلة لكارثة جديدة تهدد البلد الجديدة التى يشرعون الآن فى بنائها على أنقاض الحريق .. لكنه لم يشأ ان يفصح عن ذلك، وايقن أنهم يفهمون ويدركون.**
فأردف يقول لهم بصوته الذى مازال له وقع اليقين فى القـــلوب والعقول :

ـ « بسم الله الرحمن الرحيم . وان أوهن البيـــوت لبيت العنكبوت »

ثم أضاف :

ـ « لتكن بيوتنا راسخة كالجبال ، شامخة تطاول السحب ، ولا تجعلوا للضعف فيها مكانا ، فكفانا ما حل بنا من مصائب بسبب هوان شأننا واستضعافنا فى الأرض « ان الله لا يحب القـــوم المستضعفين » ولا تورثوا أبناءكم الجهالة والخوف ، لكى يصـــيروا رجالا أشداء القلب والعقل ، فنحن لا ندرى أى هول سيواجهون من بعدنا .. »

وازداد صوت الشيخ تهامى عمقا ، وعلوا ، وهو يضيف ـ واثقا من سماع « الأولاد » له :

ـ « لنبن بلدنا من جديد .. على حطام الحريق وأحزانه ، ولنجعل بيوتنا أعشاشا للنسور الجارحة ، وليست حظائر للطيور الداجنة .. »

وصمت لحظة ، وأدار عينيه بحب شديد فى وجوه أهل البلد الذين وقفوا متجاورين متآخين ، بمودة ظاهرة ، وقال :

ـ « رب اجعل بلدنا آمنا مطمئنا .. »

واخلد الى الصـــمت . وانهمك مع أهل البلد فى بنـــاء البيوت الجديدة .

وغير بعيد ، كانت بلطية ، تأخـــذ الولدين : خالد ، ونور ، في حضنها ، وتتجه بهما الى غرفتها ليستكملا استذكار دروسهما ، وكان خالد قد نسى تماما خوفه منهـــا ، بل أنه لا يتذكر أنه خاف منها ذات يوم ، وقد اعتاد أن يناديها « يا أمى » منذ ماتت أمه فى الحريق .. ومنذ فقد خاله ((وليد)) ! ..

وفى المساء .. عندما تجاور خالد ونور فى الفراش واختلطت أنفاسهما، وجدا نفسيهما يضحكان بمرح ثم نهضا ولعبا .. وتشقلبا على الفراش ، ثم تماسكا بالأيدى ، وتبـــاريا فى الوقوف على الرأس ، ثم عادا يتعاركان .. خبط أحدهما رأس الآخر بالحائط فهاجم أخاه وجذب شعره وخمش وجهه .. فنهرتهما بلطية وقالت :

ـ « لستما صغيرين لتفعلا هذا .. »

فقالا معا :

ـ « اننا نلعب يا ماما » .

لكنهما صمتا ثم أحسا برغبة فى الضحك ، فضحكا بارتباك ، فقد تذكرا فجأة عراكهما الدامى ذات يوم بعيد بعيد .. وتحـولت ضحكاتهما الى خجل .. وقد شعرا بأنهما كبرا .. وما عاد يصح ان يتصرفا بعد الآن تصرفات الأطفال الصغار » .

((تمت))

((حسن محسب))

ملحوظة :

• كتبت هذه الرواية عام ٦٨ - ١٩٧٠
• نشرت عام ١٩٧١ مسلسلة بمجلة الإذاعة
• أذيعت مسلسلة بالتليفزيون عام ١٩٧٤
• صدرت طبعتها الأولى عام ١٩٧٢ فى كتاب الإذاعة والتليفزيون . وهذه طبعتها الثانية - والأولى للمؤلف)

كتب للمؤلف :

١ ـ لحظة حب ـ قصص ـ ١٩٥٨ دار النشر الحديثة .

٢ ـ الكوخ ـ قصص ـ ١٩٦٤ ـ وزارة الثقافة .

٣ ـ التفتيش ـ روايتان قصيرتان ـ ١٩٦٧ ـ وزارة الثقافة .

٤ ـ قضية الفلاح فى القصة المصرية ـ دراســـة ـ ١٩٧١ ـ « المكتبة الثقافية » .

٥ ـ العطش ـ رواية ـ ١٩٧٣ كتاب الاذاعة والتليفزيون .

تحت الطبع

١ ـ وراء الشمس . « الجزء الثانى من ثنائية العطش » .

٢ ـ ديار العشق والمحبة .

٣ ـ حلم الليل والنهار .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٣/٣٢٤٢